الغوايـــــة

حسام الدين محمود



٢٠٠٨



الإشراف العام : محمد الحسينى

المراسـلات :
٢١ ش الصناديلى بالجيزة
١٧ ش العطار بالجيزة
ت : ٣٥٧١٢٦١٨
موبايل : ٠١٠٢٣١٣٥٧٩

الموقع الإلكترونى :
www.darnefro.com
البريد الإلكترونى :
dar_nevro@hotmail.com

جمهورية مصر العربية

اسم الكتاب : الغواية
اسم المؤلف : حسام الدين محمود

رقم الإيداع : ٢٥٦٤١ / ٢٠٠٧
الترقيم الدولى : 1 - 41 - 6196 -977
تصميم الغلاف : كامل جرافيك
جمع إلكترونى : سوفت أيماج

الطبعة الأولى
٢٠٠٨

الغواية

رواية

قط بمحاذاة القباب يموء، ترسل رقة غنائه تواردًا شجيًا، اعتذر ناجى عن البيع وأطلق بصره فوق القمم الناهضة فـــى خجـــل، متأملاً فى ترفع سهولة الكبرياء فى عظام البناء وتغنى:

بين طلوع وبين نزول　　　اختلطت الغــزول

ومضى من لم يكـــن　　　وبقى من لايـــزول

بعث بسلامه جهة السماء، أى يد منحته الخلود ؟! كيـــان كـــالح أخفى هيكلاً ترابيًا. لخالد، تعلقوا فى الصحراء وتساقط الثـــرى على رؤوسهم وهم على زهدهم، جفت شهياتهم لمرأى العمران، لاثت عقولهم حين تخلوا عن عقيدة الملك، شتان بـــين نضـــالهم المتقشف وصليل الكؤوس فى يد خالدين أعتى منهم، اغتصـــبوا جميعًا حكمتهم الخاصة. نضبت الأرض ولم تزل معدتها تمخط أجسادهم.

تسمع الأطفال المتصايحة فى جرن المقام فى ترفع، إنشاد غـــث برغم صدقه، عاد للغناء معهم ولكن بعيدًا عـــنهم بينمـــا عـــاد المشترى يفاوضه.

توقف البناء على ذلك، يرغب الرجل فى أعمدة خشبية، قلـــوب كافور رغم أن دماءه من ماء آسن لن يقيم البناء غيره.

ـ ألم ينته يعقوب ؟ تساءل ناجى ولم يواجه الرجل.
ـ لقد أراد أن يحدثك .. يود إخبارك بأن جزءًا يخصــك مــن البناء.
لم يشأ إثارة فضوله بالصمت، فقطعه بغرغرة، انتفض الآخر لها وكان صادقًا فى قلقه.
ـ فقط ماء ، لو تتنحى جانباً يكون فى متناولى .
تناول ماءه ببطء وهو يفكر ،
ما زال يحلم بإقامة بناء عبادته، وبالليل ينشد، يدور حول مذبحه يؤدى طوافه الصامت ؟!
اللحظة التالية كان المشترى يسأله عن الثمن الذى يرتضيه وهو لايجيب، بل كان يغادر إلى لحظة أخرى قديمة حيث طفل نحيف يسير خببًا يحمل حجرًا فرعونيًا لامعًا نقش بإتقان أفسده الزمن، عتاة مكتملوا العبقرية شقوا الزمن قضوا سلطانهم فى عزلة كتبوا أسماءهم وولوا.
ـ نضعه هنا. سيكون أول حجر فى المبنى .
قال رفيقه الخجول مصفر الوجه وهو يتناول الحجر الحاد:
ـ لكن لمعانه شيطانى ـ آه ـ نسيت أنه سيطلى.
ـ نسيت أيضًا أن ربك لم يقبله.

تشويه أحلامه عمل دائم لمداخلات ناجي.

ينفض التراب عن ثوب كتانى مناضل ويعود يعقوب يسأل ربه الغفران.

ــ هل تستضيف ربًا آخر. عزيز ذل، إن فوضتنى فى سلطانك منحته مكانًا.

انحنى ناجي يقدر المسافة التى غرقها حذاؤه فى الرمال الرخوة، انتشله بحدة ولم ينتبه للحجر اللامع الذى سقط وبعد أمتار كان نصف جدار قام خلفه،انحناء إسمنتى لأعلى يملأ فراغ السقف الخشبى الذى ينتظر الاكتمال .

فى صمته سمع ناجي تضرع يعقوب الصامت كثورة متقنة فى وجهة فتغنى متعثرًا:

احجاج بالنبى الذى زرتم وقطعتم لو كلاكل البيدا

عن جيش الغرب حين يسألكم

اكتفى بما حفظ وعاد يبصر جليسه وإن شقهٔ تجاهل ارتيابه.

- ٢ -

كل ما علمه ناجي عن تجارة الأخشاب تشربه من والده، متعدد الهجرات، مجرب، وكونه لايخلو من الخيال ، كان حلمه كثير التكرار عن استشفاف أحاجى عمله رفيقًا مرهقًا لرحلاته. فى

أعوامه الأولى، تعلق بأهداب الصحراء نزل ضمن آخرين حاملا فى رأسه أغانيه عن الرحيل. اصفر وجهه صار لامعًا لطــول تشمسه. كان شغوفًا بالتملك فجال أيامًا بأكملها دون توقف ، وما من حساب للزمن فى غربة صامتة حين استقر ببوهة الرهبــان بقعة حياة على سطح الرمال ، ولم يكــن يعــى بعــد أســرار الخصب، فكان يقف جاهًلا يشقه ما يفعل شــركاؤه الآخــرون. متوطنون هنا منذ زمن، لايروعهم تطاول الأيــام دون تغيــر. التصقوا بشريان الماء، ترعتهم العكرة ، ورغم ذلــك يســبحون فيها بل يغوصون حتى قمم رؤوسهم . احترافهم إحياء كل قفــر فتنه، تعلم ذلك وصنع لنفسه دلوًا ، وأعلى تلته زرع قائمًا شــده إليه، بذر كثيرًا وانتظر صفاء الماء ، لكن امرأة عجوزاً فاجأته ذات يوم :

ــ ليس هذا ما يصلح للزرع.

ــ أليس ما يصلح لى يصلح له ؟

قال وجهه المتعرق بغزارة.

ــ ليس أليق للحياة من ذلك النقاء.

ـــ يصفو الماء هنا عند فقره، لاتتحرك الحياة فى رحـــم خـــال، عكارة الرجل برهان خصوبة أصبح يحفر قاع الجدول المتغرين فيجرفه وهم ينهونه عن سلب ما للجميع.

حين تشنجت زوجتة الأولى، رآها راقدة فـــى عمـــق ســحابة بيضاء، شهق بعمق، صر بابه أمام النسوة المحتدات فى قطيفتهن السوداء، تحلقن حول المرأة الجافة، هو يرقيها، يعصر رأســـها فى منديل، وهن يشعلن مباخرهن، عقيدتهن فى النائبات التماهى بالتفاؤل، حممنها بماء دافئ طوقنها بدوائر العبـــق الصـــاخب، سعلت وشهقت بغزارة، وتأوهت حين أخبرن زوجها عن ســـر إحيائها من غيبوبتها.

ـــ لن أفعل، لن أغوص فى الماء .

نم صوتها الضعيف عن خوف قديم فطمأنها الزوج الذى بـــدت عليه مشاركتها الخوف.

ـــ٣ـــ

تعلم ناجى من والده الكثير، يزرع الكـــافور بمحـــازاة الجســـر الخفيض ويستعد لرحلة التجارة بينما يوصى طفله:

ـــ ابق بقرب الجدول لن يطول غيابى.

لكنه يفر إلى البحث عن الأحجار اللامعة برفقة يعقوب يحفران مسافة مناسبة لأقدامهما ويسميانها آبارًا، وحين يــذكر وصـــايا الأب ينتابه الخوف فيحاول إشراك الرفيق المصفر الوجه

ــ عندما يعود أبى سيبحث عنى، فهو ينهانى عن رمـــال هـــذا المبنى، أنت تعلم أن ذلك لن يمنعنى لكنه يحممنى كلما علم أنى حفرت بئرًا فيها ويقول إنها نجسة لكنه اليوم غائــب وســـأحفر آبارًا كثيرة ولن أقلق من عودته.

يتبعه يعقوب، يشده ناجى من جلبابه، يتــدحرجان متحـــاذيين يتحرشان بلا شريك، يحتضنان أكوام الرمال، يلمحان بذرة لأنثى بناء ضليل لفاتنة ــ يتسابقان إليها، تنزلق ساق الصغيرة الرقيقة فى بئر من آبارهما، يعجلان لحيوانيتهما وينتشلانها، يغنى ناجى مثل أبيه، مسهبًا فى النظر إليها يمسح يعقوب ساقها صامتا، الآن بدت هى مستسلمة لاستغراقها.

مط عنها ناجى ذيلاً قطنياً وهى تتلوى بقناعة بفتنتهـــا الجنـــين، يدغدغ فخدها دفء حبات الرمال المتحركة فوقها، يعلمان همـــا ما سيحدث فيصبان الثرى الرطب فوق تحدبها ويتعلمـــان فـــى الانحناء الارضى معنى الرغبة، يعودان للتحرش، وتكـــون قـــد

مضت وعندما يقفان متواجهين تنز عن وجوهيهما حمرة الخجل ويفكران فى الانصراف.

ـ مع الليل نعود.

هكذا اتفاقهما، وحين تخلوا السفوح الضئيلة يحاصر ناجى الليل وتهدده الأم السمينة:

ـ أبوك يعود ثائرًا، وحين يعود يفنى الطعام ويحـــذرنى مـــن غضبه إذا سمحت لك بالذهاب.

وبرغم جهادها يغلبها النوم فلا تشهد عودته، أما ناجى فقد أتى بعظام متحللة غلفها بإحكام وفى ركن خفى تأكد من بقائها مخفية حتى عنه .

حين حل مبعوثوا الشرطة بالهوة الأرضية القديمة، مقر لهوهما حيث الأحجار اللامعة، توجه الرجل الضخم ناحية الشرق، صلى وفاض بالتلاوات ولم يكن الخوف مجسدًا فى قلـــوب العســـاكر المتوترين حينئذ بقدر ما شملهم استغراب تبدى أثره فى حركاتهم العشوائية.

ـ يبدو الطفل على علم بمداخل المكان.

قال الشرطى الضخم المرتجف بما يحمله فى رأسه من حكيات عن المقبرة.

ـــ لن تعلم ابدًا طريقى فى الولوج.

همس ناجى متراجعًا.

ـــ لست أقرب إلىَّ من فضولى.

استمر يحفر بكفه الصغيرة ما يتسع لقدمه، يولج ســاقه يقبرهــا بالرمال، فتغوص، يتقلب ويتشبث بأطراف الكثبان ويهب إليــه الضخم قاصدًا استجوابه عن مدخل يعلمه لكنه يستغيث، والضخم يرتبك، يمسح شاربه المحنى متحسسًا ترهل وجهه المربع.

زأرت آخر هبة ريح لذلك النهار، تميد أمامها أذنــاب الكــافور الجافة وتتكحل شرفة الأفق النقى إلا من حمرة قانيــة، تشــبثت بأطراف أسراب الأوز العراقى تشطح حولها النظــرات، يشــق الأوز المدى غير عابئ بصراخ الضئيل ،الذى إن رضى بالعجز إزاء تحليقه لم يرض بالصمت، وقد تضاعف جريان دمائه وهو يخلص ساقه من قبرها، ولم يقنع بعدم إمكان مســايرة الســرب المحلق إلا بعد أن انتصب شاردًا صوب السماء، ولم يكن جسده المترب وجلده المحتقن أو نفسه المتسارع مصــدر إزعــاج ،إلا حين اختفت آخر أوزة عن وعيه،منصهرة فى الحمرة المتسيدة.

ـــ سيعودون غدًا، وربما قبل أن نأتى ويدورون حول أنفســهم، لقد كانوا خائفين اليوم، احمر التابع الصــغير وانكمــش داخــل

قميصه الواسع، أعلم الآن لماذا يصـــنعون قمصـــانهم القطنيـــة واسعة، لتتشرب خوفهم حين ينفجرون عرقًا ولتخفى رؤوســـهم حين ينكمشون.

تقافز الاثنان متباهين بصلابتهم، وتمثلت لهم معرفتهم بمـــداخل الهوة دليل نضج يؤهلهم للانتماء لعالم الكبار بل ومقارعتهم بثقة.

ـــ وعندما يعودون ليقفوا فى نفس المكان ســـيتذكرون خـــوفهم المخجل وربما فاتنا ذلك.

ضحك يعقوب أيام، تعاقبت فوق رؤوسهم، يهب ناجى متخلصًا من قبر ساقه بارادة تفوق إدراكه ولايدرى مصدرها يشير إلـــى الأحجار البارزة ويتلو.

ـــ كلا ليس كذلك.

يوقفه يعقوب ويرتل بصخب فتصطدم الأصوات، يبالغان فـــى الصخب يتدافع الهواء يطرق آذانهم وتنزلق التربة بهما، يعودان للترتيل بعد توقف فزع لكن بنبرة تأبينية تناسب مأتما مسرحيًا، يقطع ثنائيتهم العريضة الرقيقة الغلظة تصاعد حـــاد، ســـوبرانو مألوف ، فيوقف المألوف هدير صراخهما الغريب لكليهما.

ـــ منذ متى تفعلين ذلك ؟ كنت تسمعين الترتيل منـــذ البدايـــة ؟ يصرخ ناجى فى صاحبة السوبرانو فتغلب، مريم اللوم الرقيـــق

داخلها والذى زاده الخجل المحتمل نفوذا وهـــى تلـــوذ بلفافـــة تحملها، وتضيف كلمات بلامعنى فى نبرة متعمد ضعفها تؤكـــد بها اختلاف صوتها عن السوبرانو السابق فيقطع غمغمتها:

ــ أعطينى هذه اللفافة ؟

فاجأها بالهجوم فأجادت التصرف ولم تفلتهـــا لكنـــه ضـــاعف الجذب فحاز اللفافة، حدقها سريعًا وتحسسها، أدركـــه يعقـــوب مسرعًا وهو يفضها

ــ ما بها ؟

ضحك ناجى وهو يودع مريم آخر نظراته ولم ينتبه لســـؤال يعقوب

ــ بيض ؟

فاستخرج واحدة لطم بها جبين يعقوب، مكملا العـــرض فـــوق وجهه حتى ثغره ليحشرها عنوة، كان ذلك فى اللحظة التى ثـــار فيها صوته خلف البيضة المدفوعة بقوة، فانسحب للـــوراء ولـــم ينتبه لما خلفته، وثبته من نثار ترابى مشبع بالروث استقر فـــى لحظات فوق رأس مريم ووجه ناجى واللفافة بينهم إلا بعدما نهض منتفخ الوجه ثائر الجوف يتدافع المزيج المعدى المتحلـــل منه، تزيده انتشارًا سيولته التى أضيفت لمشهد المطر الترابـــى

السابق فاكتست اللحظات القليلة التى استغرقها اندهاشهم بتـــأفف متطفل وبغيض.

— ٤ —

عاد ناجى لنفسه حيث قطع استغراقه لهو الحمالين فنبههم

ــ تمهلوا فى أحمالكم وراقبوا مواقع أقدامكم ؛ لن ينتهى الماضى بين أيديكم. مجردة تلك اللوحات الصامتة من ملامح ماضيها — لكنه لن يضيع بالنظر فى تلافيفها.

ــ أذلك تام الجفاف ؟

تسائل نصف الوجه والمشترى المتردد يقلب ماله فـــى الجيـــب القماشى.

ــ مثل يدك المدفونة فى جيبك وصوتك المتقيظ.

ــ غثاء يرتدى ثوبًا..

ورمى ناجى إليه بنظرة استخفاف فلم يود المشـــترى المتعمـــد الجمود أن يبدى من الانفعال أكثر مما يلـــزم للاســـتمرار فـــى مجالسة رجل معتز غارق فى ماض مختلط الملامح.

تقدم حمال متعرق الوجه يتصدره جيب تعلق من طرفـــه وقـــد عقص أنفه، وحين استجاب ناجى لصوت قدومه، كان قد اقترب

بما يكفى لتبين تجاعيد وجهه القديمة لكنه لم يسمح بذلك حين بادره :

ـ كان والدك مباركًا، كلنا علمنا ذلك.

تململ ناجى الذى شهق فجأة كأنما يبحث عن كلمات لم يعد يجدها.

ـ وأحب الزرع، لقد عرف كيف يفعل، نازعه أقاربه حين لم يستجب لهم، عندما رحلوا، لكنه بقى طويًلا، كانت جبهته بيضاء، راقبته وهو يرسم بشظية هنا حيث تجلس، رسم نخلا وسحبًا وتأمله، ولم يكن يضحك كثيرًا ، لكنه ضحك حينئذ، وبعد أسابيع حين دفن جنينه عاد يرسم أيضًا، وكنت أفكر لويضحك، لكنه لم يفعلها ثانية.

ـ كأنك لاتعلم ذلك لقد غرس صفًا كاملا من الكافور.

ـ لقد علمت، الكل كان يعلم.

قال ناجى ثم أكمل فى نفسه :

ـ أحسن لنضال لم يجزل له العطاء، وبقايا من نفايات نضاله يحاصرنى بما يملك من تشرد وهو لم يبق لنفسه شيئًا.

ـ هل تعلم ماذا كان يفعل أيضًا ؟ كان يحدق خلف أشجاره ينتظر لاشىء، ابتاع نبتاته وأوصى بغرسها حيث يدفن، لو تعلم

لربما أراد أن يخبرك عن تجاعيدك التى سكنها الروث ولن تأتى الفرصة لذلك، أدرك الجمال الآن كيف طال صمته فعاد يكرر.

ـــ الكل كان يعلم. منذ سنوات يهاتفنى صوت وكـــان يقعـــدنى الخوف، يشلنى، أما هو فلم يكن يحركه شىء مما نخشاه .. لـــو وعدتنى بعدم السخرية لأخبرتك بسر لايعلمه أحد.

لم يشعر بالحاجه للرفض أمام فضوله، فشمله استســـلام للوجـــه المندهش وطمأنه:

ـــ أعدك بذلك.

ـــ أشرت له إلى قمة الأشجار، كنت خائفًا ورأى ذلك، لقد حاوت إخفاء خوفى ولم أنجح، وصفت له ملامح الشبح الذى رأيته وهو يصر على أنه لم يره ولم أكن أنا وحدى من رآه ، لقـــد وقـــف أمامنا فى ليلة أخرى، كنا ثلاثة ، شق الأرض نبت منها وارتفع ماردًا. تذبذب رأسه وابتسم بلامعنى وأكمل:

ـــ أخبرته بعدها وأنا أتكئ على قبره بأنه لم يكن من شبح.

قالها بنبرة من أراد إبرام هدنة ولكن مفاوضاته باءت بالفشل.

وقف المشترى يحصى أمواله أمام أعين الجميع المحدقة، وناجى يرقبه.

كنز زائل تراكم بين يديه بمرور الأيام، كغيرك تسكن رأسك تلافيف الأوراق المالية بكل ألوانها وشعاراتها، وأثر باق من سيدة، ما اسمها ؟ نسيته، امرأة شريفة صاحبة قداسة، يذكرونها دائمًا لم يبق منها غير ذكرى على عملة .

ـ الآن يتابعون العمل، لاعليك من الحمال الفضولى، تراه متطفلاً أليس كذلك ؟

تمخط ناجى وتذكر تبغه، والمفاوض يتحسس نصف صلعه.

ـ ربما ذهب ليتغوط.

ـ على مقعد خشبى سيزاول تدخينه العكر. يدعى الصمود ويفتخر بالحيازة النقدية كم ستحصى أمام مستقبلك الباهت ذلك الذى أغرى امرأة شهية تعشق السيارات السريعة لأجلها تتاجر فى كل شىء.

ـ انتبه فى تغوطك ربما تتعثر بما تركه الأسلاف.

بعث إليه بوصيته عبر الهواء الثقيل .

تغنى ببطء يتعمد تضليل سامعيه، وشفت نهايات صوته الباص عن رجولة مفقودة.

عاد المتغوط يؤمن حزام وسطه يبدو عليه الإعجاب بالسطوع الواضح.

ـــ إنه التدبير الإلهى، لاشك، إنه يتقن عمله لو ترفق أكثر بنـــا لألقى بنا فى التاريخ كما نحن.
سقطت دمعة داخله ونظر متحيرًا.

ـــ لن يغير الخالق ما فعله لأجل دموعنـــا، علـــى كـــل لســـت متورطًا.
تبرع الآخر بسؤال سخى:
ـــ من أخبرك عن القائد ؟
ـــ أى قائد ؟
ـــ ذلك الذى ضل هدفه لكنه لم يجتهد للبحث عنه وشطح عامدًا حتى حاصره العراء فاستقر حيث هو حتى صار قبرًا له، أنـــت قلت حملت الريح جثته.
ـــ بل لم تبل، إنه تجل، ذلك شأن ليس يخصنا.
ـــ ألم يتذكر امرأة، لو كنت مكانه لعدت لأجل امرأة، أى واحدة ، لاتظن أنه المال.
ـــ واحدة من كثيرات ربما ذلك أدق تلك سوءة الزهد، امـــرأة، كما هى سوءة آدم.

ـ معتزل متقشف تفجر امرأة عنفوان جسده، ألم تخرجه عـن عزمه بعدما خرج عن طوع سيده ؟وستتمادى فيما خلقت له..

ـ استمر

ـ لن أشفى بالقليل، من زرع كل تلك الأشـجار ؟ الأسـلاف، أحيوا وجه الأرض القاحل لكنهم استمروا يعيشون حيث هم. كان ليسعدهم أن يوسعوا منازلهم لكن لن تكون لنا فرصـة للتواجـد هنا.

لمعت مقلتان عاجيتان فى عمق عينى نـاجى وازدرى بلاهتـه بينما يترنح قبالة نظره تموج صنعته الريح، سحابات ترابية أوت للقاع فتباينت تراكمتها بمرور الزمن، وبرزت فى عمق الأفـق أنصابًا تذكارية للهبوب المتوالى.

حك جسده واستفسر عن شايه، فقدم إليه ما يريد، وهو يزن مـا يحدث بضميره.

ـ يشترى بأرخض مما يبيع. حقيقى هو استغلاله، تاجر، لـيس أبعد للنقاء من غيره.

الحمالون يثيرون الضجر ، تهب رائحة عرقهم تزكم الأنـوف ، وفى وقوفهم يخلصون الدعاء :

ـ يا معين.

ــ آمين.

يردد الجميع على الدعاء فيكرر طالبًا العون بعدما صدق مـــع الجميع على دعائهم، رشف ناجى نابذًا فقاقيعه، يمشـــط شـــفاهه المتخضبة بالحمرة الطفولية.

ــ هذا ما بقى منها، وصايا لم تمنحها ولن تمنحها، ما من فرصة لتذكرها الآن، على البعد لن يرى شاهد قبرهـــا وهـــى بداخلـــه مختبئة عن العالم. كانت تقضى نصف وقتهـــا تـــتلمس نعومـــة أوزاتها، أرملة من مخلفات زوجك لو لم يفت الوقت لقلت أبـــى ذلك الذى تخمر يأسه من أنقاص وزنه عبر السنين وأنت تسمنين طيورك، يومياً تسمنين ولاتنسين دوره ، أم أكثر من اللـــزوم ، خبزك منقوع دائمًا، فى لبن أم ماء ؟ ترفل فى الداكرون يلفحـــه ذيلها. تجبره على الصمت بجوارها فيصـــطنع ســـدادة ورقيـــة يغرسها فى تجويف صوانه فتختفى ولايصل الصوت المنتشر فى كل مكان إليه، حين تراه لايقع بصرها على سدادة أذنه، سترى فقط قطرات اللبن بيضاء على شفاهه اللامعة.

حين عزل سمعه كانت الصيحات تتردد فى الفراغ:

ــ أأنت قلت؟

قال سبحانك.

فأتى إليه الصوت متقطعًا.

عادت الأرملة مزركشة بريش أوزى أصيل، يتذكر ناجى لمعانه فوق الصدر المتدحرج، ثمن خصوبة، دليل اكتمال لولاه لسقطت من التاريخ ترادف ما بين الخصب واللذة، كلاهما غريزة لهن .. هى تلك، عنها حكوا، لم تتح للنظر إلا عندما انتفخ النهد المحتقن ينطق بالثورة، رضعنا ثورته، ابتلعنا الشبق الدافئ فى أجوافنـــا، امتلأنا دفئًا صرنا لانعرف عــن نهــودهن إلا ذلــك الاحتقــان الأمومى الدافئ وهو مباح.

عاد الفراغ يردد :

ــ أأنت قلت ؟

هيولى مكتمل الامتداد، متزايد بلاتوقف، مريد، فاعل، حركتــه لاتتوقف، محدق حين نفكر بالنظر. سابق لكل خيال بما يعجــز. والآخر يحدثه وجهًا لوجه مشرق يشتعل خجلاً وأين ثلاثيته من كل ذلك ؟ محتواه فى هلاميته ، هذا ما قالــه الخيــال ، معبــق ببخوره يرتاد الموج.

ــ ٥ ــ

عرش نصف ملكى يشغل ما يناسب سلطانًا لجماعة المـــأزومين غير القادرين على الاعتقاد فى عروض أخرى حيــث حركتــه

الجانبية فى غرفة مكتبه، فلا يبتعد كرسيه عن حيز البصر، جيئة وذهابًا يتعمد الضابط عادل قاسم الانحناء.

حين يغيب عن بصره الكرسى الفخم فيعجـل بالإيـاب، يلمـع سطوع رأسه فوق ساحة المكتب وهو يشير بقهوته.

لايغيب عن باله أن إشارة أخرى أتت بها من بائعها، ولايتوقف سطوعه أمام مبالغات الإجلال. مارش إمبراطورى.

خلفته جيوش سيدة التاج وإن استعصى على البيادق المتراكمـة حوله تمييز فحواه وهم يدقون الأرض بعنفوان همجى.

تسرى بهم رعشة دماء حارة يتلقون السباب القبيح فيسود عادل الجميع تؤهله سطوته المهيمنة.

ـ انتباه .. انتظام .. كما كنت.

يتصلبون بأمر الكتفين المذهبين، وتلك بقايا سيدة التاج ـ مغبـة صلاتكم لأجل جلاديكم ـ يدوى آذان متقطع، خجل أمام ارتعاد الآذان، فيغمرة النزاع السلطوى ويعلو صوته:

ـ هل فعل ؟

يخطئ تاجر الأخشاب المرتجف حين يظن أنه المعنى ويتقـدم صوت آخر من بين المتصلبين :

ـ رأيته هناك.

وأقسم الصوت ولم يدرك لأى إله توجه بقسمه.
اقتحمه النقيب بنظرة أرعدته وأكمل:
ـ لن تفلح فى تخليص نفسك مـــن الاتهـــام بمجـــرد التظـــاهر بالبراءة. تشترى من ناجى وتبيع ليعقوب متجاوزًا هذا الكرسى ولو أتم الرجل بناءه دون إجازة ذلك منى لفقد هذا الكرسى هيبته إلى الأبد.
ـ ليس لى عمل غير التجارة، عقدت صفقة بمالى، ليس أكثـــر مما يفعل أى بماله وعلى يقين أنه لم يفتنى توقيع أو رقم، لم يبق غير أن أقتنع بأنى فعلت كل ذلك وهذا يكفى.
حدث نفسه متجاهًلا معرفته لما تمثله التجارة بين ناجى ويعقوب بالنسبة للنقيب .
ـ هو ناجى من أقنعك أليس كذلك ؟ تتظاهر بنقائك أمامى وحين يتهمك عميلك الإمام بالإثم تسلم بالعصيان.
لست أفضل من أسلافك وستحدثنى قريبًا عما يعنيه الخوف لـــك ما دمت ترى نفسك بلا ذنب.
تعجل التاجر الترافع فقد أو شكت قدماه على التورم فى نعليهما الجافين منذ أن حشرتا فيهما قبل أيام، والآن بدات متيقنًا من أنه

يفعل ما يجب، بعدما أدى النقيب مشهدًا كتابيًا أدى فيه دور بيلاطس.

فكان التاجر يلهث تحت وطأة أقدامه المختنقة وقلقه القديم، وبيلاطس يمد ساقيه فى وجه كهنة الصدوقيين فيخبره الحاجب الخاشع أوامر القيصر:

ــ لن يعنيك يا بيلاطيس أن يقتل اليهود ملكهم أو ألا يكونوا رعايا الرب فيصلبوا الابن فلست أشفق عليه من الأب، فإن أراد هو ذلك فلن تكون إلا أداة للمشيئة وإذا لم يقدر شرًا فليعاقبهم بعيدًا عن ملكى، وفى كل ليس لك رب غير القيصر.

خشخش النقيب أوراقه واستوى مسترخيًا ينشغل عامدًا بأيقونات وهياكل كئوس فضية بأنصاب حفرت فيها أسماء وتواريخ، ما لم يذكره التاريخ بقى هنا، تفضض وتبرنز ذكره، ولم يعد من مأوى غير صناديق خشبية سقفت بأخنان السوس الصيفى، وإن دفعت بيادق النظام عنها تخيم الأتربة والعناكب، وهذا الوجه الصامت أغرقه الضوء .. لم يترك ملتقط الصور كشافًا ضوئيًا لم يأت به، ومهما نهض النقيب بقامته لن يدرك الإطار المعلق فوقه، تتصدره دائمًا رابطة العنق متقنة آمرة ملتزمة.

ــ هل أكتب ؟

مرر الكاتب ستار عينيه، وكفه الأخرى تدلك قلماً شح حبره.

ـــ لم يبق إلا أن يوقفنا هذا .. منذ عام يعمل، لن يوقفنا الآن.

تخطته القهوة محمولة إلى منصة الأوراق.

ـــ مادمت تعلم فلا حاجة للكتابة، ليس أكثر من أن يعرف الجميع أنه نما إلى علمنا.

تذكر النقيب الكئوس فارتفعت كتفاه وأردف:

ـــ لكن ما هو ضرورى ، أن يكتب ذلك حين تكتمل الأحـــداث ولن يكملها مجرد قصة يرويها رجل متهم بدوره.

دفعت قدمه قاع الغرفة المحمم فصر حذاؤه المنعم بنعل عظمـــى والتوى عنقه.

ـــ لم أكن أعلم ما سيفعل بأخشابى لا إثم بلا نية.

نطق صوت التاجر المتحشرج.

مقولات وحى تضاءلت معانيها فى أفواه المتنافسين فى كل مكان وزمان ، منذ تخطوا البحر، وساد بها ثرى عاش فى قصر صار مغبوطاً والحفاة يقبلون وجه الأرض يتباكون أمامه، وفى كـــل ذلك تباهى بما يدور فى رأسك، لست فوق قانونى فلست أنا فوقه ولن تبز سلطتى فلم يفعلها قبلك أحـــد، حتـــى أتبـــاع الســـماء

أخضعتهم رهبة هذا العرض، ولست هنا دائمًا لترى هذا الوجـــه فوقى لكن، مادمت أنا هنا فسأحمله إليك.

تململ التاجر الذى تراقصت ســيقانه تحتـــه والبيـــدق بتاجـــه المتواضع يحاج خادمة فوق منتصف العمر، فى جســـد بـــدين، فيستوى صدرها الناهض فى مواجهته، وهـــو يـــدجن وصـــايا النقيب، حيث يشتبك نزقها للمال مع شبقه للصدر المباح، لكنهـــا ترفع حاجبًا صوب النقيب، فيضع فى كفها نصف الأجررويدفعها للخروج بكفه المتخشن بالعصى على صدرها المنجد.

عاد البيدق إلى خانته، خصى فى قصر بيلاطس وليس وحـــده، لماذا تجردت الجوقة جميعها من الرجولة ؟!

صر نعل النقيب ثانية يؤدى مارش سيدة التاج ، ورثة محاربون مخضبون بدماء الأصدقاء ، ظلت النداءات المستغيثه تتردد فى مسامعهم أعوامًا حتى طربوا لها.

قام البيدق يحمل الفنجان الفارغ متأنقًا فى إخلاصـــه العبـــودى فخوراً .. من عائلة تحيا على أنقاض محرر الفقراء متباهين أنهم ورثته فى النضال ولما تفرغ أجوافهم من دماء محررين حقيقين. ليس نقيًا فى نضاله كما يظن، وإلا لما آثر أفكاره الجنسية عـــن

الخادمة على دعاوى ناجى السماوية. مدملجة متقنة الإغراء فى هيئتها الوضعية. جسد خالد لخادمة حتى وإن لم تكن قديسة.

هاتف متحضر تقدم جرسه النبيل بينما يزن ببلاطس صوته على سبيل التجريب.

ـ كلانا يؤدى الدور نفسه يحمل الأمر ولايملك القدرة على إنهاء المكالمة.

ضحك النقيب ضحكًا مغتصبًا وأخفى وجهه فى كفه، وعاد نعله يصر فأخليت الغرفة قبل أن تنتهى ضحكته.

ـ ٦ ـ

فى مرتعه المسيج بالكافور يتكئ ناجى على لفاعه الصوفى، وقد ذاب بصره فى الأفق الرقيق الحمرة، فى محاذاة السماء تنهض الربى المرتبة، تثغو بينها أغنام محلية هزيلة، وعلى استحياء يماطل خنوس فى السير، تلطمه ذوبعة خجول، طفل أعد للفداء بأمر المسيح .. يطقطق وجبته فى خجل تتجاوزه الزوبعة، لكن تتحصن لها الكباش المتناحرة تتهيأ لعراك قادم. فداء آخر مر تحت سكين الخليل. طلاسم مقدسة تتجاوز المفهوم، لم يبق من المسيح غير أيقونة، وغادر الخليل أهله .. لم يبق منهم جميعًا غير الفداء وهم يوصون بالدم. عبر الصحراء تزاحمت جيوش

تبحث عن فدائها، صلت سيوفهم، حزت الأعناق ولم تخل بقعـــة من الدم وتنــــازع الفدائيون فهــل تنــازع أيضًا أهل الفــداء في السماء؟!! زعق رجل متمخط الوجه بصوت صدئ. يثــأثئ للخنزير الضال ، طريد هو ، لكنه الآن فى حمى الرب متلفحًــا بعباءة القديس الأعظم. لم يفت مارمرقس أن يوصى برعايــاه، وهناك أم خائبة الرجاء معصوبة بالقطيفة تركها بعدما ودعهــا صوته الصدئ .. وحدها تقيم مأتم زوجها ــ ما جمعه الله لــن يفرقه إلا الموت ــ فوق جسد العمة وقــد تطهــرت الآن مــن ضلالها ... غسلها التراب قبل أن يطهرها الدم. رعايا صالحون أدوا مشيئه الرب. لم يتردد الزوج حين ذبحها وبقى جسدها فى مرقده دليل إيمان.

قفز ذو الوجه المتمخط فوق خنزيره ، احتضنه وسبح فى الرمال معه وفى النهاية نهض واقفاً فى مواجهه ناجى المتكئ بمرفقــه فى نصف انحناء تتهدل مسبحته العاجية تقرقع فى خشوع. وقد ازدحمت الزوابع على مبعدة منه.

شأن الرمال شأن ما يدور فى رأس المتمخط. يعقوبى مخلــص مسيح على سنة المعمدان، ضمن أجره مثل ملهمه يعقوب.

على مسافة منه كان يعقوب يمزج مارونه. قرب المـــذبح كـــان أطفال بأجساد ضئيلة يتمتون، تتسدل فوقهم غيبة الروح القدس، فتترنم عذراء ضعيفة البصر، ويصك شماس مستحم، فيتـــوارى الترنيم.

ـــ للعذراء ثلاث أيقونات تمسح بالعطر المر، ولاسبيل لتفـــادى مرارته إذا كنت تنفخ تعاريج العذراء، يمزج فى أقنية كحـــول يبارك بمعرفة القداسات الأكبر وما بين الهيكل والمذبح لن تجول قبل أن يسمح لك بذلك.

كان الشماس يوصيه وهو يجثم فوق دخنه ويدفعه زفيره ســـربًا أبيض يحجب العذراء لدقائق فيسعل يعقوب المتـــدامع وتحـــس قدمه الحافية رطوبة وصلابة معدن. نوافذ مشـــروخة ، هيكـــل يحجب الشمس. مستعمرة فطر هجرها النمل الأسود إلى أخشاب سقيفة فى الدير، مهد المسيح كان مصطبة من طين قاس مثـــل هذا الجص. دفء دمه أبدل برودة أورشليم فى ملتحده.

ـــ من هنا يكون الوقف، هبات المؤمنين دم ولحم على طريقتهم، شخير وقرقرة وأدخنة شهية، لهم فى الزهد مذاهب شتى، بئرنـــا يكفى العوز، نستحم كلما أصبح ذلك ضروريًا إلا إذا اعترانا ما يسوء!

صر الساتر الزجاجى فنشر طحيناً زجاجيًا وهو يحجب رؤيـــا الحظيرة خلف عتمته الزيتية.
تقدم يعقوب عندما ناسبه ملمس الجص، تنقل بثقة بعدما خفتت ثورة قلبه وإلم يفارقه الشخير والقرقرة . مخلوقات تؤدى الدور فلا مانع من أن أفعل أنا أيضًا.
ــ اللبانة لاتتأخر .. قبل صلاة التاسعة تأتى لاتزد لها الثمن .. حتى لوطلبت ذلك، ستحدثك عن ابنها الــذى يخشـــى النقيـــب ولايتأخر دقيقة عن تنفيذ أوامره، وتخبرك أنه لا وقت لديها وأنها تتعجل الانصراف ولاتحمل غير الدورق الصغير لتعطيــه لـــك حتى تعد لابنها ما يحمله لسيده الضابط وعندها ستبكى.
ــ ابنى يسجن وهو يعدنى أنه لن يفعل مـــا يعرضـــه للســـجن. عندما سرق فاكهة نائب المجلس علقوه من قدميه وأقسم الضابط ألا يتركه قبل أن يعيد ما سرق وإلا تعرض الضابط لنقمة النائب ولم يكن ذلك فى إمكانه بعدما أنفق كل ما معه على الخمر، لكن الضابط كان رحيمًا به فسمح له بأن يخرج يومين فى الأســـبوع يفعل فيهما كل ما فى وسعه ليعيد ما سرقه من النائب الشريف، حتى لو سرق آخرين من غير الشرفاء. تثاءب يعقوب فى خفوت وتشنج على أثر اللبن والسرقة.

ـــ لكم الله تعلمون ثقل آثامهم ولاتتورعون أن تقبلــوهم تجـــارًا تعاملونهم.

ـــ لايكن أحدكم قاضياً وهم ليسوا مـــن شـــعب الكنيســـة. ردد الشماس فى آلية وخبا صوته. سليل أوصياء توارثوا الشعب عبر الزمن، وخادم معبد تشابكت أعمدة الجص فيه، فلم يعد يعبرهـــا الزمن. توقف واحتجزته أهوال بحجـــم التـــاريخ حـــين يعجـــز ولايعجز. خلف الأبواب كانت مجانيق. وفوق الأســـوار رؤوس متدحرجة دقتها الأسلحة الغشيمة. وهناك .. ليس بعيـــدًا يحيـــا شعب الكنيسة ، يختزنون الشموع وينثرون البخور. أما داخـــل الأبواب فليس إلا هواء رطب وأرض صلبة وسقف عال وصدى صوت.

ـ ٧ ـ

احمر ناجى زهوًا وقد شد أوتار عضلاته، علـــى دفـــة منبـــره مزهوًا لا يرى إلا قمم الرؤوس وهو ينقب فى جيبه عن منـــديل قماشى معطر. رسول هو للدعوة مثل ابن أبى طالب المخلص. انتشر التقلص فيه وهو يحصى الحضور، ملازمين أماكنهم. بدأ بالتلاوة ومازالوا صامتين. ألم يسمعوا ؟ جوقة كســـرى تنتظـــر أمره. ألن يرتجفوا ؟! نز عنه العرق وبدا متشككاً فى قدرته على

التأثير فيهم. قرقرع مسبحته العاجية وانشغل بإخفائها فى سيالته. أز تشكيل رباعى يحك ظهورهم الحائط المتزيت وقد نزت عنهم رائحة تجبن دغدغت أنفه فعطس ، وشمت نفسه.

– يهديكم ويصلح بالكم. كان العلامة ابن سيرين متاجرًا عارفًا وكان يقدر آثامه بمقدار ما يوسع الله عليه. وأى إثم لهذا التقى ؟ زاد ذلك من ثقته حين انتشر التكبير حوله. تنصتون الآن بعدما صادف الكلام هوى فى قلوبكم لو لم يكن المال لما عبأتم بشىء. ألم يمل نوح ويدع على قومه. قرون لم يصادف خطابه قناعة لديهم. لايزال العجز قبل الرهبة.

العجز عن الفهم .. جدير بمن ينقصه العقل ويملكه الشيطان.

– عبد المسيح يتطهر لمخلصه. وربما جانبه الصواب حين تخلى عن أمله فى الحقيقة. وبعيدًا تحت الأسقف المنقوشة تدور رؤوس ووجوه بملامح جادمة يفكرون بالمال وقد توطنوا أمام حواسبهم بستراتهم الأسموكن ،تتعاقب الشمس خلف نوافذهم عشرات المرات ولاتتغير هيئتهم ! أية سلطة تجبرهم، أى إله هم له خاضعون ! تغنّى:

خلف الرب ربى		عظيم يستحق المجد
فى الظلمات فى الحصون		عند طلوع كل شمس

مرت على إمامته أعوام يباهى بأسلافه. تنشق خلالهـا فـيض عطارة منبره. يقف وقفة أسياد مطمئنين لمصيرهم ، يتقربـون أكثر والثمن آثام الآخرين. ذرية مخلصة لأسـلافها ، نصـبوا منابرهم فوق رؤوس الناس. رفعه قائد مغامر بعـدما لـم يعـد يناسبه الوقوف رأسًا برأس مع أتباعه، وبعده بأعوام أحاط ملك مغرور منبره بمقصورة والسبب خوارجى، ولو ناصـره أهلـه لتغير التاريخ. أما آخر الأسلاف فسنوا الدعاء لأولـى الأمـر، ويفخرون حين يعلنون:

ـ خطبة عباسية .. فلتكن عباسية.

كان صوته يعلو ويزداد ثقة كلما لمح انبهارهم ويقترب أكثر من كل ما يستفز. وفى النهاية أتم الدعاء وتقـدم المصـلين الـذين اصطفوا خلفه وقد شملتهم قناعة تامة بأن الرجل الذى يقـودهم الآن لاشك سينتهى بهم إلى أفضل ما يمكن تخيله.

صار الرجل مقصدهم فى كل ما يعجزهم وليس أقدر من الموت على ذلك. كان رجّلا لم تفته أى من خطبـه قـد مـات وفـى احتضاره كان يرجو أن يرافقه الإمام العارف. دعوه، فكان يهم لاهثًا فى ممرات الجبانة الرملية، حصى قديم وطحين عظـام، أجساد اختبأت نأياً عن المزاحمة.

ـ قبروه على يمينه، أحيطوه بالتراب، أحكموا غلق القبر، فلــن تنهشه الكلاب الضالة.

فوق شاهده وقف ناجي،التوت ساقه اليمنى وهو يستهجن زبــداً رملياً دغدغ فواصل أصابع القدم، كرر ثلاثية التثبيت.

ـ لاتنس ربك نبيك دينك.

خلفه أكوام عشوائة انتصبت فوقها الأجســاد .. محمومــون .. مدخنون .. متطهرون .. أطفال .. أنجاس .. لصوص .. دعوا جميعاً وتناهت إلى سمعه أصوات مستفهمة ..

ـ كيف مات ؟ ـ مثل غيره .

ـ ما السبب ؟ ـ لاسبب .

ـ لامعنى لموت بلاسبب ! ـ انتهى أجله .

لستم أفضل ممن بكوا نبيهم، أنكر موته رجل عاقل. فلم تــزدهم سنوات التقوى حصانة ضد الحزن. هى المشيئة.

ألم تقبر العذراء باكية قبرًا لجسد ظننته ابنها، وهناك فقط حيــث بنوا كنيستها يحيا المسيح. هى المشيئة . تغنى :

وضد العلم ما يصدر عــن العقــل		وشر التقوى ما يستتاب فيه الفكر

تراجع أمام رخامة الحزن المنتشر واحترقت أفكاره القديمة أمــام الجسد المسجى :

ـــ لو تحدث لقال اخرجوا ودعونى فى سلام .

ـــ ردد الملقن .

ـــ آمنوا بقدر الله، إنما يبتلينا ليؤكد قدرته فينا فيختبر كيف نجح إيمانه.

اقترب مزارع من ناجى فى خفوت تعمد ألا يجـــرح الصـــمت السائد، وتحدث بمثل خفوت خطواته:

ـــ رجل صالح هو، لم يظلم أحدًا وكان يحب أمه ،المرأة التـــى تنزف دمًا أزرق حتى الموت ،لقد كفنتها أيضًا ألا تذكرها ؟

تنفس بتقزز وأكمل.

ـــ كان يعلم أن مرضه سيقتله ... فكر فيك قبل أن يصفر جلده. لقد رأيته حين غرقت عيناه فلم يكن يـــرى مـــن وجهـــه غيـــر بروزات انطبع عليها غلاف جلدى رقيق. لقد أحـــس بـــاقتراب الموت وآمن به، لذلك أخرنا جنازته حتى مجيئك ولم نشك لحظة فى أنك ستأتى.

لم يطل إطراق ناجى مستمعًا للمزارع المتباكى وقد غلبه توتر، أخفى خلفه شبقًا ثوريًا فاحتفظ بثورته لنفسه :

ـــ كان أفضل له لو آمن بالحياة فما من قدر أكثر حقيقه منها، إذ ما فائده إقرار صلاحه من عدمه مادام ذلك ينتهى دائمًا إلى حيث

لن ندرك ولن نشعر به. لاشك فى أن المسيح كان قادراً على مواجهة الموت لكنه لم يفعل أكثر من التسليم به إذ لو قاوم الموت بمعجزاته لما كان الإيمان بمعجزة قيامه يا يعقوب ولو كان الموت معجزة فى حد ذاته ما فكر أحد فى القيام.

عاد ناجى من استغراقه يتأمل ما يحدث. ما يجرى هنا دائم قديم مثل الجريان نفسه. تنشق السحب عن وديان صافية، تتسمر الشمس كالحة وتنطلق أسراب نسائم بعد الزوال رطبة برائحة الاخضرار الحى، أما ما يبقى من كل ذلك فأديم محمص تتقرن فوقه أقدام حافية. عبيد للخلود يؤولون للماضى أكثر من لحظتهم تلك.

تابع الإمام ما يجرى بلا مبالاة إلا بالعرق المنحدر فى تجاعيد وجهه، قطرات أوحال لامفر منها بين القبور.

تعرق الهواء ،وثقلت الأنفاس ،والمشيعون يتداخلون ويدورون فى أنصاف حلقات حسب انتماءاتهم بينما تتنافس أنصاف أصوات على وعى ناجى.

ــ من هنا طريق ينتهى إلى المسجد.

ــ لو عبرنا الربوة المقابلة لصرنا خلف حظيرة الكنيسة.

ـ كل الطرق لابد منتهيه إلى أيهما ولابد من خروج ، فوق كل ذلك يصعب الاستمرار فى استقبال روائـــح التصـــنن والتــزنخ واستنشاق الهواء المتقيح ودبيب نسوة ماضيات فى لطم الوجوه. ليس مشهدًا مسرحيًا لكنه ما يحدث دائمًا حيــث لامتفــرجين .. لأضواء.. فقط قباب تظلل أمواتًا وخلفية من شــمس مســتعرة تؤدى دورها فى تأفف ظاهر .. اثنان .. خمسة .. عشرة. شمل بصره الشواهد ممشوقة فى حماس مقاتلين موتورين. أما الموتى بكل أجيالهم فقد تبادلوا الدعاوى والاحتشاد.

وفقًا لهيئتهم المتلاشية، يتراصون خلقًا مــن ذكــرى يســتقبلون ذكرى أخرى. وبعيدًا عنهم يمحى سطر من كشف أنيــق فــى خزانة خشبية برائحة الزيت، تتراص الأوراق مصحوبة بلعنات موظف السجل. لم يبق للتاريخ غير ســطر ممحــو. جلجلــت أجراس من علٍ انقضت أصداؤها النحاسية فى حلقات متداخلــة فلم يعد ناجى يرى شواهد القبور تسكن طرف بصره، واستقرت هياكل المشيعين البعيدة السرابية الهيئــة، حيــث هــى، كأنمــا انزرعت هناك.

إن ما تثيره الأجراس ليس إلا ما يختبئ خلفها من فعل الإنسان. يقف الآن يعقوب يقرع أجراسه فى خشوع يحاصر بها الموتى.

ليست المرة الأخيرة له لكنها ليست كالأولى. كان يبدأ طريقه مع الرهبنة، حينها كان ينصب، ورتلت الحلقة الصغيرة، وقــرع ذو الصوت الصدئ الأجراس، وهو ينادى باسمه، ولعلهــا الســماء تجاوبت حينها فسال ماؤها كما لم يحدث من قبل، ولــم تتلــون صفحة الأفق وقتئذ كعادتها، بل ربما فقدت ألوانها شهورًا أخرى.

فى طريقه كان الرجل يصعد الربوة المواجهة للمقابر فيتراقص هيكله المتموج فوق تحدبها، وقد خلف وراءه أطنانًا ثقيلــة مــن الدهشة، لم يفض احتكامها غيرها .. وحدها مريم وقفت أمامــه شاخصة وقد تلون الخوف داخلها بزهو الارتقاء وهــى تقطــع طريقه وتواجهه بعينين لامعتين تتحدثان خلف شعورهما بالذنب.

ــ فعلت ما لم يكن بد من حدوثه.

ورمقت الرجل الممتقع الطلعة وقد تثبتت وقتها أن وجدها لم ينم له بل كان سببه خفوت بريق هذه الطلعة، بعدما تنازل الرجــل عن حلمه فى تسيد جماعته، حينما فشل فى إكمال بنائه، ثم آثر الهروب إلى الدير القديم ينتظر ترقية ترفعه فوق فشــله .. بــل فوق رؤوس المنافسين. كانت ترى نفسها بلا ذنب وقــد بــدت عليها العجلة فتصنعت التماسك أمام ذلك الضعف ولو تحــدثت لقالت:

ـ لاتعلم كيف يبدو الاقتران بسيد له مثل هذه القداسة.
كانت تفكر فى ناجى .. الآن يقف أمامها سيداً مكانته المقدسة تجبر الجميع على الخضوع له دائمًا. لن يغفل أحد هذا، وحين ستقرقع مسبحته ويشير بكفه فى الهواء ستتراجع كل الرؤوس، تنقب باطنها. ولامفر وقتها من الانتهاء إلى ما سيفعلونه دومًا ، سيسجدون خلفه، يؤمنون على دعائه. كأن لم يسمعوه من قبل. عبق المسك ،الفائح منه سيغمرهم بخدر تعتمل فيه الرهبة بالقداسة، فحين يستل سواكه يفوح منه المسك ،منفرداً وحده بمباركة أياديهم فهى لاشك تحيا فى معية هذا التفرد الباعث للغموض، نسيب الأشراف هو .. ألم تنهض قبابهم فى وجه العابرين تشهد بصلاحهم ؟! ويتسوك مخللا لحيته .. سنة الأشراف، أرعدت خصومهم، يومها وقفوا متواجهين يقلبون فى رؤوسهم عما نسوا. حين فاتهم القليل عجزوا عن الكثير. قالوا أدينا الصلاة. تطهرنا .. لم نأثم فى شيء، لولا رأفة سيدنا لكان فرضًا كالصلاة.
أخبرته أن مقعدًا أعد له ولم يستشعر فى نفسه رفضًا فنفض ثوبه بطريقة من يبث فى نفسه ثقة صعبة المنال فتراجع متخذًا لنفسه موقفًا بعيدًا حيث أثار ظهوره دهشة طبيعية. وفى هذا الحين لم

تكن الدهشة هى كل شىء .. كان الصخب المترب يسود الجميع فيتيهون عن بعضهم.

ــ ألن نرقص الليلة، احتفظت بملابس نظيفة للرقص .

كان صبحى يرغى بصوت متهدج، صبحى الرشيد يتدلـــه للمـــرح يملؤه الخوف.

ــ ألم نأثم بما يكفى ؟

قذف ناجي الكلمات وألقى بصره بعيدًا حيث يقف يعقوب .

ــ من أتى به. ربما الروح الأعلى .! جمودك الأزلى واختلاجك بالرغبة لم يهونه تراجعك بعد ما تأكدت من المستحيل .

تلاعب يعقوب بشفتيه وهو يدغدغ أنفه أمام تجبنـــه المـــلازم .. قارب الشهرين وهو يبذل نفسه قربانًا يحتضـــر فـــى صـــحوه ولايشك فى اقتراب قبوله .. عبدًا مخلصًا .. راهبًـا .. ســيدًا وليس هنا تكون السيادة .. مازالت الأمانى القديمة مهدرة، لكـــن حين تلثم اليد ويمسح البدن مباركة ستزول عنه الآلام .. تباركت يا مخلص.

أشـــار كاتب العقـــــود الذى لم يفته شـــبح الراهـــب ، بالبـــدء وخروج صوتة ثقيلاً بفعل كثافة اللحم يرعد الآذان:

ــ لنبدأ .

همس ناجى متابعًا ذا الصـــــوت الثقيل :

ــ باسم الشرع تسود، تباهى هنا فوق الجميع. لـــولا أوراقـــك المزينة بالشعارات ما التفت اليك أحد فليس لك غيرها ميزة.

عاد الصوت الثقيل يرعد:

ــ هل ترهبن يعقوب ؟!

ثم صمت فجأة أمام احتقان ناجى بينما لم يصمت عقله .

بالأمس كان ذو الوجه المتمخط يفكر بتطهيره .. قال إن الرجل يريد أن يتزوج والمرأة ليست على دينه ماذا لو فعلها !

من يتم العقد إذن ؟ !!هل يهون الحب كل ذلك!!

سعد الجسد اللحيم المتخم بالحيل التى راح يقلبها ويبدلها حتـــى نسى الأسماء وانتهى للحيرة :

ــ قد يتزوج الرجل اثنتين، وليس للمرأة الا واحدً فقط، ويعقوب يتزوج واحدة فقط والمرأة لاتحل له .

أخرج كتيبًا مختومًا تصفحه فى دهشة.

أعد للكاهن مقعد نبيل، تحفة متقنة من خشب أوروبـــى بعكـــس أعمدة بناء الرب. قدمت فطرة وبينما يرتوى الجميع وهم يقتلون الوقت فى دمدمة مألوفة ومحببة للأذن، يتأثئ عجـــوز ويخـــرج صراخ مشروخ عن طفل أخفق فى الحصـــول علـــى الوجبـــة

الاحتفالية المباركة. دغدغ يعقوب بنعله الرخيص البساط الخشن في محاولة لتفادى صدمة أثارها التباعد الواضح بين رائحته الثقيلة التى انتشرت بقوة رغمًا عنه، وبين المباخر المشتعلة على البخور الصينى الرطب حوله.

عادت وجوه قديمة للظهور فى ذاكرته. وبرغم أناقة الصمت لديه لم يقاوم يعقوب الانجذاب إلى وجوه طفولية وديعة طفت فى مخيلته لتحل محل الجامدة، التى استمرت ترقبه فى حذر دون أن تتحرك فى مواقعها، كأنما انزرعت هناك. وفى انزراعها هذا تنطوى على رغبة قديمة فى تقديم اقتراح مجهول ،يرون فيه الطريقة المثلى لقضاء تلك اللحظات. كيانات تتنفس وتهرب منها رائحة الموت رغمًا عنها فتزداد ابتعادًا عن الحياة.

كانت حربه مع الشيطان هى ما تقلقه. سوف يأتى، يطارده.

ـ إذا لم أكن خليفة لمارجرجس حق لك إخضاعى .

كان يزجر شيطانه بقوة الواثق من النصر.

وعندما لطخ وجهها غثاؤه كان يشاركهما ناجى. حينها تمسحوا بأجسادهم المندهشة، وبعدما علم ناجى كيف أن ما أصابه لم يكن المرض بل الصيام فلم تكن البيضة التى دسها فى حلقه عنوة

بالشىء الذى يثير الغثاء، لم يجد يعقوب وقتها فائدة من محاولة إفهامه.

ـ كيف كنت ستعلم أن إلحاحك بالطعام المحرم فى تلك اللحظة يدفعنى للجحيم. رب ذنب يقربنى من الله. لكنه حتـــى الله كـــان سيحزنه العنف. أنت أيضًا تقدم ثمن نجاحك والجميع يعلم ذلك، حتّى الشماس المتقشف يعلم كل شىء عنك. لاتصـــلى بصـــوت عال إلا فى وجود الآخرين، وقبل أن يخدم الكنيسة كان وجوده يدفع بك إلى الإجهاد لحلقك، عندما يمر عليك فتكثر من التلاوات المقدسة. وليست الرحمة فقط هى ما دفعك للثورة حين اختطف تابعك الشاب المعطر دائمًا فى زيه الجهادى وركلـــه عســـكرى صغير محترق الشعر مترب اللباس أمامه وهو يحسبن، وخلفـــه وقفت تحسبن مثله وتعلم بيأسك ألا أهمية لذلك. وقتها وددت لو وقفت أمامه بسترة النقيب، وأنت تزجره وتصرخ فيه أخبرته أن نجومه المذهبة ليست صعبة المنال.

ـ ٨ ـ

غلى ناجى بالحقد فى وجود رسول عادل البدين. بفعل ارتجافـــه اندفع صوته زاعقًا وهو يتشبث بمصـــلاة، والبـــدين المرتخـــى الخصر يردد خلفه:

سبحانك .. قوى على كل ظالم .
وأول ما نطق به بعدها:
ـ عادل باشا .
عجوز بدين، خصى آخر يلمع الحذاء النبيـل، سـميك العنـق الملائم لصوته المكسور. لماذا امتلكوا جميعًا أعناقًا سميكة، ألـم تجز أعناق أكثر سمكًا. خصيان بأسماء رجال!!
ـ الباشا يمنعك من البيع .
تمخط وهز رأسه المتضخم وهو يجد صعوبة فى أن يقيم عنقة.
ـ كان يعلم منذ البداية .! لم يفوت فرصة لتفعيل خسته.
لم يكن بيع أخشابه حين علم النقيب بوجهته هو ما أنهضه عـن عرشه. متباه هو به، كان يؤثر الصمت لكنه يضعف أمام حنقه حين يأتيه صوت ناجى من فوق منبره:
ـ إن رأيتمونى على باطل فقومونى.
مقولة معصوم تكررها .. وآخر كان خليفته، وقف فوق أعنـاق القوم شاهرًا سيفه، ينذرهم، ويهددهم ببطشه والآن تتدعى أنـك آخر المعصومين. وأد النقيب ضحكة ساخرة داخله ولـم يشـأ حينها وهو غارق فى كرسيه أن يخل بكبريائه فخرج صـوته هامسًا:

ـــ لن تكون سببًا فى تقويض عرشى.

دق نعله الجص البارز من أرضيته فكان البـــدين يقـــف أمامـــه برأسه المطرق:

ـــ أنذره هذه المره وبعدها يفقد كل فرصة لدى.

أمر البدين دون النظر إليه وهو يحاول الهروب من لوم نفســـه لهذا التسامح الذى أشعره بالخوف من المواجهة. رفع حذاءه فوق المكتب وهو يتناول ملفًا تآكل غلافة من كثرة الاستعمال .

لم تزل بقايا سيدة التاج ، ملك التـــاج الجميـــع ولـــم يمـــنح إلا حلفاءه ، هكذا العروش .. قريبًا تقبلون جميعًا ما تبقى لكم مـــن طعام ولباس. تصفح ملفه متمتمًا.

كان أبوه مفاخرًا بأصله .. ادعـــى الولايـــة .. ارتقـــى فـــوق الأعناق .. حدثهم من وراء حجاب، بارك صـــغارهم وبشـــرهم بالخير وصدق. لم يكونوا فى يوم أقل ثقة فيه من غيره، ألقـــوا إليه بما ثقل عليهم ، سليمان الحكيم هو بالنسبة لهم .

حين اجتمعوا حوله يحكم بينهم كان يفصل فى كل شىء والجميع غير مبال إلا بما يصيبه من حكمه. قسم الأراضى بينهم وأقصى منهم من شك فى تسليمه بحكمه. علم الجميع ما علـــيهم حـــين يلقونه من تقبيل يده، وهو المنتفخ فى تقلبه بين الزوجات يعلـــن

للجميع فوران الشباب داخله. لم يحدث عن عجز، يخور وهو يحمم الجسد الكثيف على مرأى من نسائه ويغنى.

بعد سنوات تحشرج الأنين فى حلقه وقد تقلص البدن التاريخى فى جوف لفافة صوف. تخلقت حوله نصف دائرة من المنشدين، صبوا ابتهالاتهم فوقه ولم يكن الرجل ليفرط فى تمكسه بمركز الدائرة، عندها داروا حول أنفسهم وهم يدقون دفوفهم، فى الوقت الذى تسلل فيه ناجى خلفهم وبعد دقائق كانوا يكملون دورانهم وقد استمرت رؤوسهم تتأرجح فوق الأعناق يمينًا ويسارًا ولم ينتبهوا وقتها أن الذى احتل مركز الدائرة وتلفح بالصوف كان رجّلا آخر، لكن أحداً لم يغير من رقصاته ولم يتوقف الإنشاد، حينها انتفخت الثقة داخله وفوق احمرار أنفه وأذنيه كان زهو آخر باستئثاره وحده بإيمانهم وتقربهم. ليسوا أول من رقصوا وهم معصوبو العيون سكيرو الرؤوس.

– ٩ –

فى غروب خجول تخضب حمرته وجهها خفق قلبها فعلا بجواره وهو يناجى السماء، فاستمرت ترقب كل ذلك كاتمة الأنفاس، حيث طال ذلك الغروب ، حينئذ ترنحت مريم عامدة بينما تقوس يعقوب مختطفًا أطرافه بعيدًا عن الجسد المتفجر

أنوثة. وأياً ما كان ما يدل عليه الخجل الذى اكتسى به ذلك الجسد فليس بمنج من الإثم. ولم يكن الإثم وحده هو ما أصابه بجمود ينم عن يأس فى تلك اللحظات. فبعدما انهار حلمه بإقامة معبده، قبر يعقوب أمانيه القديمة وذلك عندما علم طريقًا أكثر عظمة ينتهى بالصولجان. سينتظر المشيئة، لكن تبدى له أنه باتباعه ذلك الطريق لن يدرك أقل من المجد، إلم يكن ما هو أكثر. القداسة.

كانت مريم قد طهت أرزًا وفى زخم الاشتهاء استقر فخذاها فى هدوء استنادًا لنصف جدار وقد توركت لفافة نصف مطوقة بقماش خشن. لم يكن بد من تجاهل خاطر الغثيان الذى عاد ليعقوب، فقطعت الأنثى الذكرى الملحة:

ــ مازلت على صومك ؟

ولم يكن مناسبًا الاستمرار فى التباهى بالتقوى أمام الاقتحام الأنثوى، لكن الصوت المتردد داخله كان أقوى.

ــ من صام جوفه عن الطعام ولم يصم قلبه عن الرذيلة فصومه باطل.

مقولة قديسين عمروا الخلاء بزهدهم. مازالت بقايا الكتان والتيل تسكن صناديق خشبية رطبة محايدة الرائحة. عندما تحدث

عنها الشماس كان يحدق باتساع عينيه فـــى أيقونـــات المـــذبح والشىء الذى لم يستوعبه المعبد الأسطوانى الصغير لـــم يكـــن سهّلا أيضًا بالنسبة لأى إنسان. مسح الشماس عباءته وانســـحب مغمغماً وبعد ثوان تردد صوته فى الفراغ الأسطوانى الأكبر:

ــ إنهم هنا منذ زمن، لقد عشت معهم أكثر مما عشت فـــى دار العجوز مرتعش الأطـــراف. . والـــدى .. يتســـلقون الســـرج ويتقوسون فى أقبية السقف فيتصاعد البخور من مشاعلهم لأعلى لكنه يهبط إلى آخر الليل بعدما يمضون.

ــ هنا منذ زمن ..

همس يعقوب

ــ أنا هنا منذ زمن ..

كررت مريم قاصدة ذاتها وهى تستر إناءها البلاستيكى لتحفظه دافئًا بينما لم يكن الوقت كافيًا لدى يعقوب لتدارك انفعال ولـــده الرحيق الأنثوى المكتوم بين النهدين، بينما ستصر هـــى علـــى جذب انتباهه فتفشل.

تحدثت بعيدًا عن عينيه عامدة ولو وجدت شيئًا آخر غير الحديث لفعلت :

ـ طهوت عند الخالة .. أصلحت شرائط موقدها الكيروسيني ..
كاد لحمها الكثيف يلتصق بى، تعلم كيف تقبض على صـــدرى
كلما اقتربت منها، وتذهب بعدها تبول. بدينة، عـــاقر، بعينـــين
واسعتين وبشرة شاحبة ببثرات عشوائية.

تمخط الراهب بخفوت لم يجرح استمراره فى الصـــمت النقـــى
حتى يتلقى سردها فى فتنة وقور.

ـ١٠ـ

بدينة بلسان مراب. تهز الكسيحة لحمها فى زهو وهى تحصـــى
أرزاق الناس، ولم يثنها عن تحرشها بالنفوس انفلات ســـنواتها
رغمًا عنها حين احترقت ساقها ولم تعد قادرة علـــي الوقـــوف.
تستمرئ حصار ذوى المال، بابتزاز ضمائرهم، ثم تتربع فـــوق
عتبتها مهملة تراقب المارة ، تملؤها الثقة فى عجزهـــا كمصـــد
لنفوذها المسلم به.

حين مر الإمام مرددًا تسبيحه، كانت متراكمة فى جلبابها زهرى
النقوش وخرج صوتها ثابتًا استوقفه:

ـ مر الجاويش وكان رأسه سيسقط، سأل عنك.

اقترب مجربًا هدوءه الصوفى بينما تابعت :

ــ كان محتاجون كثيرون ينتظرون قدومك وكنت أظنك ستزيد عطاياك وأخبرتهم بذلك لكن لم يصلنا شيء فقاموا ساخطين يدعون عليك، لكن لاتقلق لن يتحدثوا عن ذلك كثيرًا، فعندما يأتون ثانية سأذكرهم بما عليهم .

ارتج فخذها اللين بفعل ركلة عشوائية منه فانتشرت رائحتها فى أركان البيت، هيكل البيت، هيكل رخيص، أنيق التنظيم. حقوق ردت لأصحابها، حين وقف المحرر يوزع أجزاء الوطن، تتماثل الحوائط المتعامدة، مستمدة رتابتها من ماضيها تجمد أمام انداهاشه عندما قالت :

ــ تشرب إيه.

رقيقة بعظام كسيحة وضمير تاجر جشع لاتفكر إلا حين تشم المال. فى يدها علبة استقر فى قاعها سكر متماسك بفعل الرطوبة مخلوط الحاجات الأساسية الممنوحة ، لم يبق لنا من عهد المنح الا ذكرى ملعقة واحدة فقط.

ابتلع لعابه الأول منذ دخوله مرددًا.

الاشتراكيون أنت إمامهم		لولا دعاوى القوم والغلواء

ثنى ساقه واستقر بمقربة من بحيرة وسخ طازج وقرقـــع جيبـــه وهو يشهر كفه يدنيها من صوان أذنه وكان سيبدأ تلاوة قرآنيـــة لروح أمها الميته منذ زمن حين خرج صوتها رقيقًا:

ـ لاتقرأ هنا ! فلن تحتاج أمى كل هذا، ولن يسمعك أحد. هناك بجوار شاهدها الطينى، تعرفه، بلا اسم، أخبرونى أنهم ســـجلوا التاريخ بغصن جاف بمحاذاة القبر. ليست وحدها تسكن قبرًا بلا اسم.

ـ هل أخبرتك أن النقيب عادل قبض على تاجر الأخشاب .

كان ضمير التاجر يتحدث ويتابع حمقه

ـ ألم يحملوك شيئًا لى .

أزالت عن وجهها الرقة، فاتسعت حدقاتها ترابض خلف ســـتار عينيها.

شرب ناجى شايه وهو يغلب رغبته فى زجرها. ألـــم تعلـــم أن الرطوبة أكثر إرهاقًا مما يسمح بالغضب. دائنة لم تمـــنح غيـــر الثواب، تظن أنها تمنحه نيابة عن الله وأن الجميع سيرتضـــون الثمن. لم أتحدث عن تشوهك، ومادمت لن أقايض الناس علـــى عجزك فلا تقايضينى على إيمانى. أصاب العجز الحياة فخلت إلا

من أمثالها. تستوقفنى بسلطة ما أنا عاجز أمامه. لكأنه العجـــز والسلطان لدى الجميع.
قبل أيام كان الشماس يتقافز بين خنازيره ومـــن فـــوق ســـوره الناهض فى خجل كان ناجى يستطيع رؤيته وهـــو يغنـــى لهـــم فيرتبك ويتيه عن موضع قدمه ويسقط فى قروان نحاسى كبيـــر ذى جدار طينى متجمد حيث كان الماء يلطمه أثنـــاء محاولتـــه الاتزان. حينئذ نهض فلمحه يحوى لفاعه الصـــوفى ويضـــمنه نصف وجهه الساخر فزعق:
ــ أبناء أفاعى .. أنتان .. شياطين. لولا أنكم اللحم الوحيد لكان صيامى عنه السنة كلها.
أما الشياطين المسكينة التى أدركت غضبه فقد تنحت عن المـــاء وهربت إلى جوار السور تتمسح فيه، فتطلع الشماس إلى نـــاجى كأنما سيقذفه بكلماته :
ــ ألم يرض النقيب عن المعلم. كان تاجرًا، وبإمكانه دائمًا شراء وبيع أى شيء. حتى هذه الخنازير. منذ تجارة الأخشاب لم يعد يبيع ولايشترى أى مصائب منعته ؟! لكنه سيخرج يومًـــا حـــين يريد النقيب ذلك.

شد ناجى لفاعه وتظاهر بالمضى بينما يعوقه ضعفه المفـــاجئ، تضاؤل ثقته فى ذاته. كان الإحساس بتآكل كيانه يدفعه لازدراء نفسه، حيث زاد هذا الازدراء أمام التشفى الرخيص للشـــماس. مضلل يعبث بثوابت أزلية. ماذا لو لم تكن فكرة يعقوب هى ما ورطه ؟ غمره حلمه حتى عزله عن وعيه وهو يقفز فوق ثوابته يصر على أن يقيم البناء جهة الشرق ويقرع الأجراس بنفســـه. كان يحصر الطواف خطوة خطوة. بالطبع وإلا ما وقـــف أمـــام المذبح قبل أن يبدأ الطواف بحماس متضرع يعلم نهاية تفانيـــه. أما أنت أيها الإمام فبلا شعب ترعاه مثله إلا من لم يعلموا حقيقة وعظك وقد أقنعهم نصحك وأنت تعلم أن هدفك كان التسيد ومـــا المانع لو كان كذلك ؟! ألم يكن والى العراق مخلصًا. وزاد على ولايته ملكة الوعظ. بين هذا وذاك الشيطان والمؤمنون لم يكونوا يعلمون. وحتى لو كان الشيطان حاكم كل البلاد لما أمكنـــه وأد هذا الإخلاص حتى لو غفل عنه الجميع. بعد أن لعن الشـــيطان تركه خلفه ومضى.

كان ناجى يفكر وهو يجاهد المتبرعين لأجل المرأة أن مريم هى ما يبقيه مستمرًا فى ذلك. بجوار الخوف من تضاؤل صورته فى الأذهان كرجل سباق فى الخير.

فحين تقوس جسدها الغض أمامه وهى تحسن التعفف النسوى، كان يشتهيها أكثر من أى وقت اخر. فريدة الصفات هذه المرأة، مدللة لذاتها، حتى فى استجدائها عندما تقول:

ـ مسكينة خالتى .. بعد موت جدتى قطعوا عنها معونة صندوق الدعم ولم يعد يعلم بها أحد .. لم يكن الدعم باهظًا لكنها كانت تجعله يكفى، فلم تكن تفكر بضرورة أن تشترى دواءها، برغم ما تحمله من الأمراض. فكما أنها تتشكك دائمًا فى جدوى الوصفات الطبية التى يفتى بها المتبرعون ربما لأنهم لايرغبون فى تحمل مصاريف طبيب. فلم تكن تعتبر ذلك مهماً أمام اكتفائها بالصلاة وهى جالسة مرتين أو ثلاثاً فى الأسبوع بكل ثقة فى هذا البديل وتقول ضاحكة:

ـ أليس هو وحده مسبب العجز والمرض. لو يعلم ألا ضرورة له ما أتى به ..

من أخبرها بذلك ؟! ربما أنت. هى قالت ذلك كثيرًا. لو شاء لشفاها ولكف أيدى المانحين عن إعانتها ولكن لن يكون بمقدورها حينئذ الضأن الأسبوعى.

تأمل ناجى القباب التى مازالت خاضعة للصمت يختفى فى قلبها تاريخ كرامة محتمية من تعاقب الأيام. هنا أول من سكن هــذه البقاع كانت ومازالت تبعد مســافة عــن العمــران المتفاعــل بخصائصه، حيث المتــأنقون المتعطــرون بغــزارة، جــامعو الضرائب واضعو القوانين، تسلســل الســلطة فــى صــورتها الواقعية، ذوى الأوسمة، ملاك كل شىء يرتعون بعيدًا عن الله. لكنه هناك ولم يزل يمهلهم .. حى رغم آلهتهم المبالغة التــأنق. توجه إليه بالصلاة، تيمن وهو يعطس واستعد للســير، وجهتــه الشارع القديم. شارع سعد، شارع ناصر، لم يتغير فيه شــىء، نصفه خلاء والباقى نصف خلاء ، حك نعلاً جلديًا فانجلى بفعله الحصى وزاد سرعته متحسسًا الأرض المتربــة تحتــه. كــان المحصل ينتظره، رغى المحصل ـ دائمًا يرغى ـ لماذا يبعثون إلى بأمثال هؤلاء، خلاصة علمهم عامل ثرثار يدس أنفــه فــى منديل قماش رطب، فضولى فى أسمال كانت أنيقة قبل عشــرة أعوام وهو يتسول عيشه. توجه إليه.

ـ توقف، لاداعى للفخر أمام من يعلم ماضيك، لست وحدى من يعلمه. هات أوراقك.

تصفحها ناجى على وجه الصحيفة اليومية المستهلة بالوجه نفسه بل بالوجوه ذاتها. فرش الأوراق الرسـمية فـوقهم .. الرجـل وعمله وجهان لعملة واحدة. عـاد إلـى أوراق الضـرائب .. الاستهلال :

النسر الرابض .. وزارة .. محافظة .. والبـاقى .. لاجديـد .. أزاح الأوراق عن الصحيفة وقرأ:

فاتنة مشهورة تزور البلاد، أهبة الاستعداد، عوامـل النجـاح، استغلال القدوة. تصفح.

الفريق الأعظم يزيد إنجازاته ، فخر الوطن ، حلم الملايين. زهو الانتصار يصلح للاستعارة، هذا يحدث حتى معى ولو للحظات لكنها كافية لنسيان الوجـوه الأولـى. الأمـن أولويـة. الأمـة الواحدة .. شعب واحد .

استمروافى التقنع ولاتسمعوا لأحد.

ـ ماذا تقول الأوراق.

ـ إجمالى مدفوعات .. أرباح .. تفاصـيل مهنيـة .. أعـداد عاملين. مدة العمل .. أى عمل؟!!

السيد راعى النظام يرأس اجتماعًا لكل النظاميين، أهمية تنسيق العمل .. التشاور بين من يحملون نفس الفكرة ضرورة عملية لاستمرار التقنع. أغلق ناجى عينين حانقتين وعلق:

ـ النقيب أيضًا يؤمن بالضرورة العملية. الآن يستحم ويشهر حذاءه فى وجه عساكره، الخصيان سيمسحونه بألسنتهم حتى.

استمر يطوف ببصره.

ـ كبير الشيوخ يرعى الحوار العالمى للثقافات يحضره السيد .. والسيد .. والسيدة .. أحفاد لجد واحد ينكرون نسبهم.

كان سلفه قد أنكر على حاكمه التبذير. ماذا تقول أيضًا الأوراق الرسمية:

ـ إحصاء عام .. فترة السماح .. الأوراق المطلوبة .. تحذير.

تمخط المحصل الذى عاد للحياة لتوه.

ـ الباشا لديه نسخ من كل الأوراق فقد عهدوا إليه ضمان التنفيذ .. قدم أوراقك إليه. وعقد فتائل الحذاء الفلينى الذى احتفظ الآن بالحصى فخشخش خلف كعبه وكان مازال مستغربًا. تنهد ناجى موبخًا الهبوب الساخن المخيم.

ـ ليس قبل أن يطلب هو ذلك .. بيلاطس هو ذلك .. بـــيلاطس الممالئ يملى أوامره بإيجاز وحين يتمثل سلطته معى سيبعث إلى برسوله مطأطئ الرأس.
حين أتاه برسوله كان أول ما فعل أن اطمأن على وضع رأســـه الساقط أمامه وبروز كرشه الثرى الذى سبقه إلى طاجن نـــاجى الفخارى حيث جذبته الأبخرة الثمينة وهو يتابعه، اقتحم المائـــدة الصغيرة تاركًا خلفه الباشا خلف منصته. من جملة الخصيان.
ـ بقى طاجن آخر كان لليل.
همس ناجى وقدمه مسعفًا الفم الشره الذى نطق بصوت ســـمين على خلفية مضغ :
ـ لا أظن الباشا سيسألنى عنك فى الأيام القادمة، فلديه الكثيـــر. لديك الوقت الكافى .لكنه وبعد أن احتجز الخشب ربما يـــذكرك، وبرغم ذلك لابد أن أعلم أنا بكل شىء .. فعندما يفكر الرجل فى الطعام فليس أمامه غيرى، وحدى بإمكانى الإتيان بأجود اللحوم وأصناف الحلوى الخاصة .. بقليل من التبجح مستخدمًا عينـــى، تعلم تلك النظرة حين تتصلب الحبتان ويشد الجسم. لقد علمونـــا الكثير.

ـــ وهكذا تعلم أنه لايمكنه الاستغناء عنى. بالأمس أتيته بالحلاق الشهير، أنت تعرفه .. شاب يتقنزح لكنى ألقمته تهديدًا مناسبًا وفى دقيقة كان خلفى بكل أدواته فى الصندوق الخشبى مع أنه كان يمكننى بسهولة القيام بذلك والنقيب يعلم، وها أنت ترى أنى قد حرصت على أن أبرهن له على أن كل شىء بإمكانى ومن الواجب أيضًا أن أخبرك أنى لم أسيطر على الشاب المتقنزح كما كان سيفعل أى عسكرى بلا شخصية عندما يطلب منه باسم الضابط أن يفعل ذلك وكان هذا سيؤدى الغرض دون شك. لكنى أرى أنه حتى لو كنت خادمًا للنقيب فيجب أن تتحلى ببعض الشخصية.

شخير هادئ تصاعد من أنف ناجى فالتفت إليه فى الحال ليتأكد من يقظته.

ـــ أنا أستمع. بعض الشخصية، بإمكانك بالطبع أن تفعل أى شىء مادام لديك بعض الشخصية.

انكمش الحلق ذو الشفتين اللامعتين وقد تجمد الدهن فوقهما.

ـــ خطأ أن يعتقد الرجل أن بإمكانه إصدار الأوامر هكذا دائمًا دونما اقتناع من يأمرهم وبالأخص إذا كانوا ذوى شخصية. هل

أخبرتك أنه لولاى لكان الباشا يعانى الآن لسعات الشعر المقصوص بعد أن نسى القنزوح فرشاة التنظيف.

قهقه فبدا وجهه أراجوزيًا .

ــ برغم كلامه الكثير فهو شاب جبان .. حدث هذا كثيرًا. وهم يرتبكون عادة عندما يطلبون لمثل هذا العمل فيجمعون أدواتهم دون تركيز وينسون أى شىء ذى أهمية .. عندما فتح حقيبته وقبل أن يطوق غنق النقيب كنت قد اكتشفت الكارثة. هو يعلم الآن أنى أنقذته ولذلك لم ينطق بكلمة عندما خصمت من أجره النصف وكان يمكن أن يمضى بدون أجر لو رأى النقيب ذلك لكنى أقنعته بضرورة الدفع. وهكذا أسيطر على الجميع.

عض ناجى أنفه متشممًا أثر أسنانه على قمم أصابعه. فتات المضغ، بقايا الحياة القذرة. إصبع سواك عدنى يزيلها عن آخرها. رمق الجالس أمامه يصهل بخشونة.

حيوان أليف يختلق الرضى عن نفسه ويصدق وسيده لايلحظ السخرية فى وجهه . على عرشه الآن يبت فى أمر الجميع. له أسياد كثيرون مدرجون فى رتبهم أمام مراياه يتأنق ككل ليلة.

ــ هل تعلم أين يخفى أوراقه ؟! درج مقدس يكلله الشعار.

عاد الرجل للتمخط مبرزًا صفين من أسنان صـــفراء عشـــوائية الترتيب. بينما أردف ناجي :

ـ مثل الآخرين هو يحتاج للطعام كل يوم .. والمال.

همس ناجي متشككًا :

ـ نعم .. ربما .. لديه الكثير. يبعثون إليه دائمًا لفافات مختومة. لابد فيها كل شيء.

ترنح الإمام وتغنى:

ذو الســـلطان بالمـــال عزتـــه		وأهل الزهد للأشراف أنساب

ـ ١٢ ـ

اجتمع المؤمنون حـــول نـــاجي .. فاضـــلون .. متقنعـــون .. مبهورون .. مترقبون .. باجتماع العامـــة ولايـــة .. والولايـــة فضل. والفضل ميزة .. الفضل سلطان.

ـ ما آتاكم فخذوه وما نهاكم عنه فانتهوا.

استهل ناجي الوعظ.

ـ لا رد للقضاء. إن سلط عليكم المرض فارضوا . وإن رفعـــه فاشكروا. لن تغيروا مما كتب قيد أنملة. وهل بقى للسابقين مـــن أولى العزة والسلطان شيء. إن شاءأعطى وإن شاء أخذ. وكـــم من عتاة أغراهم الملك وأعماهم الشيطان وهم يتبعونه حتى هوى

بهم فى بئر الذنب والهلاك، فلم يكن لهم من منج ولاشـافع لهـم سلطان. وهنا انفعل وجهه ولحظه المستمعون.
ــ ألا إن من ينصب نفسه فوق رؤوس العباد لملعون إلـم يقـم بأمر الله .. سنة الأولين .. حكمة الناجين.
إخوتى ليس فى الإيمان اختيار وليس عنه عدول. إما أن نرضى وننجوا أو نرفض فنلعن وليس لنا من قوة فنتردى فى اللعنة إذا ما رفضنا. وإذن ليس إلا الإيمان وليس إلا النجاة. وهأنتم ترون أن الله لم يرض لنا غير النجاة. أما مـن يشـهرون رفضـهم فيظنون أنفسم من القوة بحيث يقدرون للناس ما يـأكلون ومـا يقولون، فليسوا أقل ذنبًا من الشيطان نفسه حين ظن نفسه قادرًا على الوقوف فى وجه المشيئة بلهوه أمام الناس. إذ يسول لهـم أن يضلوا فيستجيبوا، والشيطان يعلم أنة ملعون، والحـق أنـه يستحق اللعنة فلايحب الحق فيسكتكم عنه. شياطين خرساء مـن يسكتون عن الحق ولن تأمنوا إن سكتم عنه. ماذا تنتظرون حتى تنطقوا بالحق فتعلنوا أمام كل مجرم جريمته .. فإنمـا عقـاب الطغاة شديد من الله. وليس لنا غيره فليس إلا أن نؤكد إيماننـا برفض الطغيان .. فلا سلطان علينا إلا لمن يدعوا للإيمـان ولا ولاية إلا لمن يعز الله وإلا فلا نستحق الحياة .

وكان يبدو عليه أنه يفكر فى النهاية .لم يدر التابعون ما سيورطهم فيه انفعالهم حينما خرجوا بعد خطبة ناجى يلقون بلعناتهم صوب النقيب إلا عندما اصطفوا أمامه ملتصقين بالأرض وببعضهم، يهزءون من حماسهم ـ ضريبة الإيمان بالحق وملمة التقاعس عن أداء الواجب .

ـ ما الفرق بين أن تخضعوا له برضاكم أو تخضعوا لغيره رغمًا عنكم ؟ هل منحكم أجرًا، أم ضللتكم الثقة ؟

وبصق النقيب أمام أعينهم متعمدًا ملاحظة أثر ذلك بينما يقلب فى الأوراق المدسوسة ويحملق فى الصور ويزيح المرايا.

ـ وحدى أفضل بلا انعكاس .

خربش مكتبه بأظافر قاسية وزعق:

ـ أنت لابد أولهم. أشهر سبابته واقترب من مزارع فى أسمال متربة لكنه تراجع فأعاد الخصيان تثبيته. مزارع مطرود كان يسرق الخشب الجاف .. لولا الخطأ لكنت بين الأموات. ألم يبك أبوك على جزمتى .. منذ متى توقف عن البكاء وتعلمت أنت الثورة.

ـ لم أقل إلا ما كان سيقوله أبى .

ركلة من الأمام صدمت عموده الفقرى.

ابدأ الكتابة .

قال النقيب ولم يهتم بتحديد اتجاه الأمر فخرفش الكاتب المتراكم خلف حامل خشبى أوراقاً بدت قديمة، وثائق بلا أهمية، تواريخ متشابهة. لاجديد على الأوراق غير الصور.

ــ هل بدأت ؟

رمقه وعاد للمزارع.

ــ بكاك كما يبكون الأموات، أقسم سيبيع كل شيء ليفتديك من العقاب وكان سيفعل ولولا الإيمان منعنى لتركته ساجدًا لى حتى أنقذك. أبوك فعل كل هذا .. وليس وحده سجد .. والآن وبعد أن أنقذتك من أصحاب الحق تأتينى ثأرًا .

تذكر المرآة فعاد يبحث عنها بعصبية. ماذا يبقى للوجه من وجاهة إذا انصاع للغضب، فتختلط الوجوه ولافرق حينها بين غاضب لرؤية الإيذاء وغاضب بفعل الإيذاء. كلنا يفعل الشيء نفسه .. يحتفظ لنفسه بما يبرر غضبه فى حين يواجه ذات الوجه الآخرين بتجسيده الخاص للغضب.

ــ انتهى الملف الأول .

نطق صوت الكاتب المتحشرج.

ــ لكنى لم أقل ما أردت قوله .

الباب خلف المزارع فلاحظ فتحته عندما لطمت مؤخرة رأسه.
وصر الباب ثانية عن عكسرى ضئيل يحمل ملفات تبدو جديدة، تعثر الضئيل فى الجسد الملقى والذى تقوست ذراعاه فوق وجهه احتماء من الملفات الآخذة فى التساقط بعدما أفلتت من العكسرى الذى فقد اتزانه. وسقط هو الآخر مصطدمًا بالمكتب.

ــ أولاد كلب يا ويلكم منى .

صرخ الضابط وحاول بعصبية تفادى المرآة التى واجهتــه الآن ففشل، فى النهاية أطبق جفنيه وهو يمرز ستار عينيــه ويخــور فيخرج زفيره شخيرًا. بعد قليل بصق.

ــ الآن يصفو النفس. صدر مغبر مثل وجوهكم، سجائر أمريكية مهربة، ماركة المشاهير ملاك كل شىء ورثة التاج، وحتى هذه الماركة لن تفيد. القذر يسيل لعابه على أرضى، ربما يسيل دمه بعدها.

ــ ما الفرق ؟ بماذا يفيدهم إمامهم إذن ؟. لامفــر دائمًــا مــن استمرار التحقيق .. الباقون يحتجزون تذكروا الطعام .. ألقــوا إليهم بأى شىء .. ينامون أو لا .. حتمًا سنواصل ما بــدأناه .. المهم أن تغلق الملفات الآن. أمرهم مستريحًا وحدق فى الوجــه المستقر على الحائط خلفه . إنه النظام الآمر .. درة العسكر ..

ضابط متحمس وضع أصول كل شيء، كان خياله ملهمًا لكل رفاقه لولاهم ما كنا لنسود هؤلاء .. صراع الطامحين لم يبق على شيء وصراع الحسنات بلانهاية.

أعاد الضئيل ترتيب ما فوق المكتب والنقيب لايفارق مرآته.

" آتيك بغيرها " .. بصوت خافت نطق الضئيل ولم ينس الإجلال المناسب. إنها مخدوشة الخلفية. قبض عادل عليها بينما وقف خلفه الوجه المصور مبروزًا وقد بدا أكثر هدوءًا. زجاج رديء للمرايا الرخيصة وكئوس وأكواب الفقراء. ليس وحده يخفي وضاعته خلف شعارات .. عالي الجودة .. درجة أولى .. لابأس. أخذ يقلب الملفات المتراكمة.

ـ فتاة الكسيحة، ملف خاص لو أتممته كما يجب لتحدثت عن نفسي أكثر منها. مخيف الواجب إذا لزم تحقيقه كشف أسرارنا .. لكنه يبقى واجبًا لو كانت فيه نهايتنا وما دمنا لن نكشف هذه الأسرار فليس أمامنا إلا أن نتظاهر بأداء الواجب، لكنه عندئذ الواجب على طريقتنا. فليكن كذلك ما دمنا لن نتغير. فلتبق يا ناجي مطاردًا مطلوبًا دونما سعي لإنهاء هذه المغامرة. الأفضل أن تستمر كذلك مادام الجميع مطلوبًا ومرفوضًا.

فى استراحته الرسمية حسم النقيب أمره، سيحقق رغبتـــه ولـــن يبالى بالوجه المصور. فى الخارج يبروز جنديان نظاميان الباب الضيق المظلم دائمًا وقد اعتادوا رائحـــة الرطوبـــة وخشخشـــة أحرف الوريقات الطائرة.

ـ عندما تمر اللبانة سترغى.

همس أحدهما.

ـ وماله، راقب مؤخرتها ستعرف كيف توقفها.

تحدث الضئيل .

ـ ستتحدث وتسأل ،ماذا لوتمر الآن ؟

نهرهما الضابط من الداخل بينما ترتجف مريم بين يديه وتلمـــع فى عينيها دموع باردة، فيحدث نفسه ليتفادى شبقه الجارف:

ـ رائعة مريم حين تبكى.

بينما تتسارع أنفاسها فتقول مرتعشة:

ـ اللبانة تعرف الآن كل ما يحدث هنا.

لايمكن أن يكون هذا الرأس إلا لها، جبهة مهرة، جذور شـــعر نابتة بعشوائية. ونهضت صوب النافذة الضيقة تتعقب شبح اللبانة الذى لم يره غيرها.

ـ لتعلم. إن ذلك لن يفيدها فىأكثر من المساومة علـى سـعر أكبر. وولدها الذى يقضى أكثر من نصف الأسبوع معلقًا فـى السقف يفهم ذلك أيضًا، وغيرها لن يعتبروا ذلك ذا أهمية. فهـم يعلمون من يخصه الأمر .

شبق مباح وضريبة الاستمرار فى الحياة الاستمرار فى التردى. على كل لست الشيطان ذات الشعر العشوائى بجبهـة المهـرة تتلصص وهى تعلم. تحاول إثبات الحقيقة بالحقيقة. لافائدة مـن استمرار الشك .. لن يوقف ذلك شىء. حتى لو كنت عاهرة ـــ رغم أن ثناياك تنطق بالإخلاص ـ فما الذى سيتغير. لن تتوقف عن استجدائى لأجل ابنها، ربما فقط ستزيد مطالبها. أما خالتـك فليست إلا أكثر المستفيدين .. فحينئذ لن يلزمهـا لتحقيـق كـل مطالبها أكثر من الإشارة إلى الجاويش البدين بها. ولـيس هـذا فقط هو كل ما يمكننى فعله من أجلها فمازلت أتحكم فى كل مـا يجود به المتبرعون. أما الإمام فما زال يعد مهور حريمه .. كم قال؟ !ما دام لن يغير من حقيقة موقفى شيئًا فليستمر.

حاولتْ التملص فزاد من إحكـام طـوق الـذراعين حولهـا .. تشممها .. لعقها .. قريبة الآن أكثر من اللازم، الاشتهاء يهـدم الحدود .ألم يقرب الملك راقصات القاع، وبعد ما، خُلع لم تتغير

المفاهيم .. جاء عبيد آخرون للشهوة — ديمومة النقص الإنسانى. غرق فى الجسد البض وهو يهذى . جسد لايمنح إلا لمن يستحق .. وأنا أستحق اللعنة على من يلوم المرايا .. من غيرى يستحق. زيوت مرة، عصير زيتون سيناوى أو مستورد ، هناك يستوردون الحشيش أيضًا. تذكر عادل الجاويش البدين.. يأتى بكل ذلك .. يراقب .. يوالس .. شيطان يؤدى واجبًا مقدسًا لامفر منه. التسلل، المعرفة المحرمة، المساومة باسم القانون. البغل يعلق شابين على الأقل كل أسبوع ويدخن الكيف كل يوم ويفكر فى ترقية.

قبلات سقطت وآهات تبددت بين الكئوس والأرفف، تسارعت الأنفاس المتلذذة والمستغيثة وانتشر الفوران فى الجسد المتحرر من سترة السيادة، فشمله الضعف وارتجف بفعل الثقل الماضى فى أحشائه يقوض عظامه ، وبعد لحظات تذكر موقعه فوق الجسد الأنثوى المترجرج، فانتقم لضعفه بثورة فطرية قام بها الجسد العارى. بينما أكد عادل الذى بدأ يتدارك نفسه سيادته عندما زعق فى عساكر البرواز:

ـ انتباه، لن يمر اليوم فى الرغى.

عندما أتت المرأة فى موعدها، رغاوى لبن على يدها. صبت الفقاقيع البيضاء فى كوب كبير نظيف وجديد من البلاستيك، يحصل عليها البدين بسهولة، تؤدى دورها ثم تحال لخدمة المعلقين والمساجين، تمتمت :

ــ عند الشماس صحفة متشققة يتسرب منها اللبن ولايغسلها إلا نادرًا لكنى رأيتها فى مكان آخر، صببت اللبن فيها ـــ آه ـــ كانت مريم تحملها لى، كان اللبن لخالتها. ربما هى أيضاً من أتى بها هنا. لا أنسى بسهولة.

هل ولدى هنا الآن ؟! آخر مرة رأيته كانت .. لا أذكرها.

أزيز سيارات محتجزة شمل الجميع ففكرت المرأة بنفس الأزيز. هى الآن بلا دور إلا ذلك الشيء الخالى من المعنى .. صحو مبكر .. نصف اغتسال .. تحشم .. تقليد لاغنى غنه .. قطيفة للمناسبات، دانتيلا صينى للأيام العادية، وليس لكل ذلك نهاية غير استمرار إدانة الولد ،يتذوقه ليختبر وجود ماء به. لو كنت ستعرف لما أتيتك يوميا. هل علموك أن تختبر اللبن أم أنك تمثل ذلك ؟ عبرها جمع من الأطفال يغنون وهم يتسابقون فى الكلمات

مصمصت قمم أصابعها بشفاه جافة وتغنت معهم بينما يضـــيق جسدها بالألم. حتى الألم يمل. ويغزو رأسها خمول مقزز، ثقـــل قلة النوم وتزيت الجلد وتزنخ منابت الشعر. ماء دافئ وصابون بريحة سيزيل كل هذا وستلقى الملابس القديمة المتســـخة علـــى سطح الماء الجارى وينزع عنها الوسخ.

لن ينتهى خبر ما دامت اللبانـــة تحملـــه .. ســـيعلمه البـــائعون ومحصلو الكهرباء، الزبـــالون، موظفـــو صـــندوق الـــدعم .. وسيعلمه يعقوب الذى سينكر عليها إفشاء الأسرار فيقول:

ــ أزل جذع النخلة من عيونك قبل أن ترى شظية فـــى عيـــون الآخرين .

لكنه سيؤكد عليها أن تأتى كل يوم وتعود المرأة يثقل عليها ما تحمل فتثرثر:

ــ الكل يعرف .. الكل يقول .. والجميع يهتم. الحقيقة ما يقـــول الجميع والأهم هو ما يثير الجميع. أول الغوغائية كلمة، ودائمًـــا هناك كلمة تقال .. الحق أو غيره كلاهما كلمات. وحـــين تقـــال الكلمات تردد الألسنة. الكذب يثير أكثر من الحق.

واللبانة كغيرها تبحث عما يعزز وجودها، وتقـول كمـا قـال ناجي:

ـ إنهم لايصدقون إلا ما يرونه غيـر قابـل للتصـديق. فهـم لايؤمنون بالحقيقة كثيراً، إذ تسيطر عليهم قناعة بإمكانية اكتشاف الحقائق أياً كانت فلا شيء مثير فيها إذن. أما الأخبار المزيفـة فأقدر على إثارة الانتباه إذ يثبت غموض تحليلها احتواء الحيـاة على أكثر بكثير مما يمكن إدراكه. هكذا يفكرون هكـذا فكـروا دائمًا. خرج ملك ملعون بذنوب مزيفة وعبدوا آخر بمجد مزيف أيضًا. هكذا هم .. تماثيل ميزان لاتتساوى كفتاه إلا في وضـع مقلوب حين لايبقى أي شيء لأحد.

ـ ١٥ ـ

ـ الحمد لله .. الحمد لله.

استهل ناجي وعظه. حكمه منزه ورثناها، حكمه كل شيء وفي غير هذا الموقف مهرب من كل شيء، اصطفت رؤوس متطلعة مصفوفة بعشوائية. فاهمة وغير فاهمة ـ لا اختلاف .. دائمًـا تنتهي كل تلك الرؤوس للاشيء. أين كنتم عندما أهين إمامكم ؟ ليتكم حتى شاركتم النقيب فيما قال. الاعتذار بالضعف لايكفـي.

تعلل بسعال عن صمته وغرق فى عفن. فتائل لحم تغلى وتسيل عن عظامها .

مخالب مرعوبة وكيان ضئيل مشوه مثل .. ليس له شبه . ربما نزيز فرعون،طفل فى بيتك سيقتلك. لاوجه للشبه الآخر، أخذته المرأة فى أحضانها وتربى فى كنفها ،أما هذا النتن فليس بنبـــى، بل شيطاناً. الكابوس من الشيطان .

سعل مرة أخرى وعلى مسمع من الجميع زعق:

ـــ من أعمالكم سُــلط عليكم.

لم يرد الرجل برغم انسحاقه بفعل مطاردة لايدرك تفاصيلها

ـــ أن يبدوا عاجزًا عن المقاومة أمام مستمعيه..

أما الطريقة المباغتة التى اعتادها ذلك الكابوس فكانت ملائمـــة لمحاولته الدائمة للهروب وهو يقابل المرأة الكسيحة مهاجمًا إياها وكأنما لم يتأثر بروائحها.

ـــ لاتحكى عن شىء. فقط خذى ما أحضرت .

ويلقى بحمل ثقيل فى حجرها.

ـــ عضو المجلس تذكرك اليوم.

رجل ثرى كانت تسبه.

ـ هو وأمثاله من يبقونك على قيد الحياة، وليسوا جميعًا مضطرين لإعانتك .

أخبرها متأففًا وكان يعلم أن ذلك غير صحيح، تعمد ألا يسألها عن مريم فلم يكن يريد تحمل ما ستثيره ثرثرتها عن علاقتها القديمة به. ربما ليست قديمة بحيث يموت أثرها وإلا ما كان كابوسه حيًا. وحتى لومات، لن ننسى كوابيسنا أبدًا .

ماذا قال ابن سيرين. الحى ميت والميت حى، فليمت إذن ذلك القذر.

تعليل الضعف بالعجز لايجدى، فثمرة الخوف الضلال، والمستحيل لايخيف فقط يثير الشك أما الممكن فحقيقى وبذلك يحق له أن نخشاه. ماذا لو كان ؟ لو .. تأرجحت رأسه وارتطمت بالدفة الخشبية وسقط.

كان خبرًا تحمله اللبانة ولكنها شاءت هذه المرة ألا تبالغ فى نشره. فحين يقال سقط ناجى بعدما خارت سيقانه سيؤخذ ذلك بعطف أكثر منه إثارة ولعل ذلك ليس بذى فائدة لها. فى رحلتها الصباحية للكنيسة أعلنت وفى زيارتها للبدين أعلنت ، أما مريم والتى كان يبهرها ذلك الكيان المنتفخ فقد يضنيها أن تفقد شيئًا من انبهارها.

غلبت مريم إحباطها وتصنعت إيماناً مبالغاً فيه وكان هذا كل ما بإمكانها لتؤكد انتماءها لذلك الكيان الإمام العارف، فتمتد سطوته حولها وتسمو فوق كل ما يعتبر ضعفا أو إثماً، ولاسيما ما يحدث فى استراحة النقيب ،حتى لو كان يقف خلفه طموح وتطلع إلـــى النفوذ والهيمنة، فالكل يفعل ذلك بصور شتى. وطالما أن لـــديها هذه القوة فيما يدعيه ناجى من حقائق تتخطى كل إدراك ليثبـــت بيقينه فوق أى ادعاء وبعيداً عن أى احتمالات قـــد تصـــدق أو تخيب فإنها تمتلك جزءًا من الحقيقة. وهم جميعًا يؤمنون فى ذلك أما حين حدث السقوط فهو خطأهم .. حمقى، محض أصـــوات، لاعذر لهم حين لم يملكوا القدرة على فهم هذا الحدث فماداموا لم يستوعبوا إلا ما بإمكانهم تحقيقه فهم أقل من أن يتصوروا ما هو غير ذلك. مطت جذعها وعبرته فى اتجاه الخروج حيث شردت للحظة قصيرة حين اتضح لها أنها هى من بررت لنفسها هـــذه القوة. ولاوجود لما تعتقد فيه. شىء آخر كان يعتمل فى دخلهـــا عن الكاهن. يعلم لماذا يسقط، يعلم أنه مطارد بطيف كيان بـــلا ملامح.

تضافر للوفاء والخيانة. ولاء تام للسيادة، جارية الرشيد القاتلـــة تحت ستار الخلاة. أوى ناجى اليها فى تخوف. الآن بعيدة هـــى

عن شبقه، وكان غضبه سيكتمل لولا انسحبت من أمامـــه فـــى هدوء إلا أن الغضب عاد مع الذهن المشـــلول والغليـــان حـــين انساب نظره خلال النافذة النصف مفتوحة .. القبة!!

ترقد أو تقف ؟ !لافرق.

ـــ تقفزين فى لحظات وتحذرين.

أسر إليها فى هدوء خلف النافذة التى تعوى لاســـتباق الـــزمن، وتعرت سيقانه المبللة بالعرق المتاطير وهى تهم بـــالقفز لكنهـــا تراجعت حتى مر آخر طفل فى مجموعته كان الوحيـــد الـــذى تخلف. قفزت وناجى يغلق نافذته خلف مؤخرتها ولو قفزت قبل ذلك بقليل لما تجرأ على ذلك وهى مازال مهتزة لاذعة برائحة الإشتهاء. صحبت معها أقبية الكنيسة المتصلبة خلـــف النافـــذة المغلقة.

ـــ ١٦ ـــ

لم يكن ناجى يعلم كيف سيباغته يعقوب وشعب من الأطفال ،كان قد نصب نفسه راعيًا لهم، فى هدوء خلف البناء القديم المتهـــدم، ليس إلا فضاء غير مخطط وأسوار خجلة أقيمت للرب ولم يقبلها هل كان يرى. ربما سمع شدوها. مسحورة مـــريم بالموهبـــة . كانت نسمات المساء الصيفى تتراقص على غنائها وهى تغنـــى

عن الإخلاص وهو فى أحضانها يتوجع من الرغبة التى اشـــتد إحكامها. ألم تقلصى انتشر بسرعة فى قنوات جوفـــه، ودمـــاء هربت مخلية محلها لدفء ينبع مما بين الساقين. تكتـــل ثقـــل مناسب أسفل جزعه يهزه بعنف فى خروجه وهو يشتاط ضـــعفًا وارتجاجًا فابتل جسده، وتبخر عرقه سريعًا بحرارة الرمال التى ابتلت أثناء احتضانها للجسد المتشافى من اللذة.

تناهى إلى سمع ناجى فى لحظات الرجفة تلك زغاريد طفوليـــة وخشخشات سعف. ولم تفزعه الأصوات إلا حـــين تصـــاعدت بمقربة منه. حاصرتهما الصيحات المحتفلـــة واحتلـــت رائحـــة العرق المختمر فى فمه رائحة السعف المتاطير فبصق وأصـــبح مكتمل الملبس ما بين صيحتين خلف الجدار المتهدم. كانت مريم تحدثه عن صورة مناسبة لما حدث وهـــو يجاهـــد لاســـتمرار الصمت المناسب لهذا التلاحم الخفى. ولما كان يعلم أنها ستحدثه عن الزواج بينما لم يستحسن هو سماع ذلك فلم يكن المكـــان أو الزمان مناسبين لذلك، فلم يكن فى وســـعه إلا أن يشـــب قلـــيلاً ليهرب من كل ذلك لكنه لم يدرك أعلى البناية فانخفض رأســـه وهو يهمس إليها:

لم يجدوا يومًا غير هذا يجعلونه عيداً؟.!

مع شمس نيروز ناصع داعبت يعقوب ذكرى قديمة، يتم موروث فى أحضان الصفصاف كانت مريم تغنى فى صفاء، تشير إلـــى قنبرة خضراء وتصيح. تتلوى بين الأغصان وتنزلـــق فتجــرج ساقها الرقيقة وتصرخ وهى تعلم كيف ستستفز ارتخاء خجله.

ــ أجملهن هى.

تستوى بمحاذاة الشاطئ مستلقية تشتهى حنان الرمال. صـــفعها حين تعرت سيقانها المتألمة.

وقبل أن يعود بالبيض المسلوق ليصالحها كان قد اندفع لتوه من صفعته بلاهدف ورغم ما ادعاه من أسف فلم يكن ذلك يباعد بينه وبين ما استشعره من قوة تسكنه لايعلم مصدرها. فتحدث إلـــى نفسه بالرجوع وشد صدره إلا أن همته خارت واهتزت قدمه، إذ لو كان ما يحدث داخله فعله لما عبأ بها منـــذ لقطـــت ســـعفته وأدركته.

ــ سعفتك، كانوا سيأخذونها .

وتقدمها له مبتهجة تحمل أجمل سعفة .

أحسنهم أنت. يقبلها ويدفعه خجله بعيدًا عنها وتدرك ذلك فيزداد ابتعادًا.

كثيراً ما يفكر أنه يخطئ حين يذكرها لكنه يتمدد على الرمال مقلدًا ويعرى ساقيه ويتحسس رأسه الحليق وينطلق فى خياله. يطلق خصلاته ويحنى إحدى ساقيه ويمد الأخرى، يقفز بعيداً، ينظر إلى قنبرة غير موجودة وفجأة يستلقى فتكون هى، عشوائية تمددها متعمدة، نبيلة الملمس تطفو على الرمال تباعد ذراعيها ويحلم بعناق مرير بطعم المعصية ويضيق باحتمال لهيب الانتظار فيتابع الغزل تتلوى بين أصابعه ألياف السعف الحادة فتجرحه ويتقطر دمه شاهدًا على إخلاصه.

وفى صمته المقدس طال جهاده. زاد عن الأربعين فى الصوم. متعبد رغم ضعفه. فى قلايته زاد عن السبع صلاوات. نافذته صوب المشرق والأخرى قبلية أغلقها طوال الوقت.

كانت تأتى، تعبر التلال فى طريقها للجبانة ــ سطنائيل المحرض ــ وهو ينتظرها أكثر من الشمس ،يعلم يعقوب مواعيد مرورها وانحناءات مسيرها أكثر من النجوم والأفلاك ،بينما يمتد الفراغ بلا علامات بمثل انتظاره.

شاعت رغبته أن يقف، فجمد خلف نافذته باهت الوجـه عبـق التخمر، رأى مريم، ثقيلة هذه المرة تملأ الرؤيا منتفخة الـبطن. ولم يكن الوقت يسمح بالتطهر من الرغبة فيقول:

«لايكن أحدكم قاضياً فيقيم الآخرين.»

ولكنه هو من سيقيم نفسه، حتى هذا لا. كان استمرار اشـتياقه ممتزجًا مع الصمت المتوغل فيه انتظارًا لهمس المخلص بكلمات ترهبه مع شوق من جسده يهزه. فإن كان الجسد مأوى للمحبـة فليعلو صوته وليعظم مجد السماء بعظمة هذه المحبة.

اختلس الحارس ذو الرأس المستطيل نظرة فى المدى ولمحهـا ولم يكن الوقت كافيًا ليتأكد من صدق حواسه ويطمئن لقـراره. كانت تقف أمامه لاهثة تتقطر عرقًا والثقل فى مقدمتها يتـرنح رغماً عنها.

ــ امرأة حبلى. فيزيد من شقاء وقفتها مع الشعاع الصـحراوى الكالح المسلط على مؤخرة رأسها هل يمكن أن يحدث ذلك ؟.! عجوز ضئيل يقود راجلاً حماراً ينوء بأجولة حبوب جافة كانت منشرة فى ساحة الدير، توقف للحظة ،الوحيدة التى سـمح بهـا لهاثه فاندفع الحيوان المصلوب أسفل حمله الثقيل بعيدًا عنه.

– يؤانس يسأل عنك. يقول إنك لـم تحكـم أبـواب الحظيـرة والدجاج..

– يعلم أنى لم أنته من تنظيف قلاية أبينا يعقوب.

أجابه الحارس وعاد للمرأة. وقد لحظ نهوضها المفـاجئ مـن ارتخائها. شخصت رأسها نحو أعلى البناية .. ثلاثة طوابق، فى أى شرفه هو. قال لن ينظر خارجًا فيرى إنسانًا يحرك غرائـزه قبل التجلى ؟ فكرت .

أعاد ذو الرأس المستطيل درفة الباب الهرم لتسـمح بـاحتلال جسده النحيل المسافة بين الدرفتين، وبنصف انحناءة، من رأسه عوى خلف العجوز والحمار. بقايا إنسان جـاء يسـأل الـرب الحماية ولم يتخل بعد عن دائه الذى لن يكفـى الـرب الجحـيم ليغسله عنه .

انتبه ذو الرأس المستطيل إلى أنه ابتعد كثيرًا عن المرأة فبصق فى ذيل جلبابه المتفتل محاولاً تذكر الطريقة الصحيحة لتلميـع وجهه المعفر ،ظانًا أن ما يفعل لن يحرك الزمن وستقف هى بلا حركة أو محاولة للتفكير حتى ينتهى، وبتلك اللحظات سيختصر أعوامًا من العزلة تقشف فيها وجهه بما يكفى لمحـو تفاصـيله الأولى والتى لم يعد يتذكرها . فعندما مط أعلى خديه تألم، حينها

أدرك أن وجهه لم يعد يحمل من الرفاة أكثر من قشــرة جلديــة صدئة تكسو رأسًا مستطيلاً صمم من العظم.

كانت مريم تعلم أنه سيسألها عن هدفها، عمن تبحث، وسيتحدث كثيرًا حيث لن تسمعه ،وتفاديًا لما يمكن أن تسفر عنه معرفتــه بسر علاقتها القديمة بيعقوب تمادت فى تجنبها الفضول الملازم لها حين تذكرت أن الجميع هنا غيرمسموح لهم بمقابلة الغرباء. أما من تتاح له السلطة ليكسر هذه القوانين فسيكون من الزهــد والبعد عن الناس بحيث لن يسمح هو لنفسه بذلك. أمــا وأنهــا غلبت كل ما تشعر به من أزيز فى عظامها وتكتل جسد مرهق فوق ركبتيها فليس أقل من أن تغلب هذا الإخفاق الذى تشعر به الآن.

انتهى ذو الوجه الجاف من تجميله فعاجلتــه بإلقــاء جســدها بحرص صوب التلة الرملية الضئيلة بجــوار الجــدار العتيــق متعمدة أن تعدل من وضع سقوطها فى الوقت المناسب. ولم تكن بحاجة لأن تعرف أن الرجل لن يتدخل فى ذلك، فليتم بالصورة الصحيحة اختصارًا للوقت، أعقبت ذلك بشهقة استغاثة واضــحة فتخيل أنه فهم ما تريد، وفى لحظات كان يحمل دورقًا فخاريــاً

يتموج داخله ماء دافئ فاض منه فوق الرمال عندما اهتز فى يده أثناء دهشته.

ــ يفعل الشيطان الكثير لكن ليس هو هذه المرة. همس لنفســه. عرقها من جسد حى. اختبار من جنس الخطايا، ريح تهدم كل ما يبنيه الصمت. لم أفعل ما يوجب العقــاب. مــن أمــر بـــرجم المجدلية. ثقيل جدًا هذا الانتظار يفيق بعد لحظة .

اقترب يعقوب من النافذة كأنما هو الوقوف الأول له. يحمل قلقاً يألفه متجاوبًا مع هزاله الجديد بالتجاهل. رأها هناك، جسدًا قديمًا مثل الأزل. عبر الحمار ،خلفه العجوز يحاول إدراكه وقفــز ذو الرأس المستطيل يطارد فرخ دجاج يشق الهواء بخفـــة جســده الممحو. دمية رجل يهتز طول الوقت بين خيوطه الواهية. ثعلب أجرب لولا الالتزام بالصمت وبقايا من حلم آخر عن المجد لكان أول المنبوذين، وعجوز بروح شيطان يستحيل مع امتداد العمر كياناً كسيحًا معجوناً باللعنة. ازدواج للفتنة والإخلاص. مريــر ذلك الصمت بين صخب العته المنبوذ وشراهة العجز المفضــى إلى التآمر. جلال لايستحقه حقير. كان صوته يتردد فى رأسه.

ــ أبونا يعقوب يفتح النافذة طول الوقت وبالليل أسمعه يغنى.

ــ يغنى!! لن يطول ذلك. استمر فى المراقبة .. أنت تحفظه من نفسه. قال يؤانس مزهواً.

ــ أفلن يصبح أبًا للدير ؟ !ثم صمت العجوز وبعد لحظات أكمل مترددًا، لولا سمعته يغنى عن امرأة لدعوت له ليل نهــار فهــو يعطينى البيض.

ــ وهل يهمس المخلص فى جــوف ملــؤه الرغبــة والغرائــز البشرية.

ــ لن أدعو له ثانية ؟ لكن سيشق عليه ألا أدخل قلايته ؟ دعنى أنظفها فقط.

ــ سيفعلها غيرك.

ــ ذو الوجه المستطيل ؟ .!أطرق مكملاً فى نفسه.

سيعلم كل ما يخفيه يعقوب سيقرأ اسمها على حائطه، ويعــرف كل شيء. إنه مجنون انساق يعقوب مع حرارة الضوء المبهــر مراقباً قمم الرؤوس وكان ما يزال يفكر فى العجوز.

ــ وحين يهددك الرئيس يؤانس تخشى أن يطردك، مداهن، لولا هو لبقيت تبول فى الشوارع ولحملتك القطط لرضيعيها. نجــس بمثل ما أنت معتوه. تقول عن ذى الرأس المستطيل إنه مجنون

وكنت تترقبه فى يدك قائمى الحديدى. ربما سـرقته. تتحـدث للشيطان .

ـ يسقط غارقًا فى دمه ولن يشفى. لن يجد من ينجده ولن يصعد هناك ثانية، سيبقى بقرب خنازيره.

ارتجف يعقوب رغمًا عنه أمام الماضى المقتحم لكـن صـوت العجوز استمر داخله.

ـ عند يعقوب فى الصباح ينتهى من صلا ة السادسـة وينـام فيغيب تمامًا بعد سهر الليل داخله.

وخلف الحارس كان سيرفع الثقل الحديدى فى الهواء ليهوى بـه فوق الرأس المستطيل حين أوقفته صيحة يؤانس:

ـ ألم أقل لك استمر فيما أمرتك به.

فتراجع فى اللحظة ذاتها التى غلا فيها دمـه بفعـل الغضـب كإجراء مناسب لرجل كان يفكر فى القتل قبل لحظات. لم يشعر العجوز بعدها أنه لم يكن عليه أن يفعل ذلك كما لـم يفكـر أن يفعلها ثانية. وبعدما أقنع المجنون كيف ظنه غريب يتسلل فحاول الاعتداء عليه لم يعد يملك أمام نفسه حيلة تمكنه مـن تحقيـق لحظة انفعال مناسبة ليفعل ذلك ثانية. ومما زاد إحساسه بأن ذلك حدث ضرورى هذه الشهية القوية للإثم. فكان يحمل داخله رغبة

قوية فى إثبات وجوده حيث تلح عليه رغبته فى البقاء فى وضع مناسب داخل الدير، فكيف كان من الممكن ألا تتحرك هذه الثقة فى أهميته فى اتجاه تحقيق هذه الرغبة، وبعد ذلك حتى لو أقسم أنه لن يقوم بأى مخالفات فلن يمنعه ذلك. إذ لو صـــدق فـــى قسمه عن وعد ما يعتمل فى نفسه من غرائز ورغبـــات لصـــار ضروريًا وجود هذه الأشياء قبلاً، فما أهمية النصر علـــى هـــذا الشيء إلم يكن قويًا. وقد كان إيمانه بأهمية الانتباه لذلك عميقـــاً لدرجة أنه حاول إقناع الجميع حوله أن يتصارعوا فـــى ســـاحة الدير ظنًا منه أن هذه هى الطريقة المناسبة ليحاولوا جميعًـــا أن ينتصروا بقوة على ما بداخلهم بطريقة تبعث على الفخـــر فـــى مواجهة عدو قوى. وقد حدث وتصارع اثنان منهم فأمر يؤانس بحبسه فى قلاية علوية، حيث منع عنه الطعام والشراب ثـــلاث ليال.

ـ ١٨ ـ

بجلال الزاهدين كست يعقوب حلة من الورع. مدو اســـم هـــذا الدير. قديس يعمر أبدًا يمر حين تلتصق قبة الســـماء المظلمـــة بسفح التل المتعرج فيقدم نفسه بصرير البـــاب الإمبراطـــورى القديم، يتمدد فى ضوء قداسته متقدمًا. حدث يعقوب نفسه :

ـ منذ متى ولم يخاطب أحدًا. هل نسيهم، أم طـال بـه أمـر الرحيل، كيف يكون هنا ويشم عرق المرأة الـذى يمـلأ الجـو ورائحة زيتونها الأصيل وكأنها تغتسل بالورد. الليلة لـم يخـطُ بعيدًا عن الباب، دار قليلاً وخبا ثناه ثم أخذ فى الخفوت. آه لو لم يأت ثانية، من يدلك إلى السموات، لترتفع أنت بعيدًا عما يمكـن رؤيته. لن تنتهى العزلة وسيدوم الصمت.

بشرفته استند بأظافره التى غاصت فى الجدار الجيرى المتقشـر مستريحًا لاختراق الطلاء المتساقط بفعل احتواء تقلص متقطـع ينتشر فى كل جسده، أنين ميكانيكى يسرى فى نتوآت الصحراء مع أسوار الدير. قفز يعقوب فى الضوضاء التى أثارها الصوت الوحيد فى المدى. كانت بقايا سيارة تتحـدى رخويـة الرمـال مقهورة تحت الثقل الموزع فوقها المتزيل لأجنابها التى استمرت تصفع الهيكل القديم وترسل خلال مرآها سـابحة فـى الغبـار الخشن أزيزاً فى الأسنان لم يسمح له بمتابعة تمييز خليط القرقرة وتصنيفه إلى طرق، احتكاك، صفير .. وكان هذا مما اعتاده مع متابعه السباق الودى مع الشيطان.

ـ أسود تمامًا كأنما قطعة من الظلام. قال ناجى

ـــ تغوص نظراته فيك ولايتحرك، كأنما يأمرك أنت بتجنبه، إذا عوى فلأنه يتعذب .. ألقمه العذابات بلسانك ينهزم، وستتأكد من ذلك.

هاهو ناجى يسابق السيارة كعادته، يعلم ما تحمله لولا هذا البناء لاحترقت عظامه فى طبقات الصحراء منذ زمن. شيطان دنىء، ليس الآن يرغب فى المرور. عوى الكلب بنبرة محتضر ومضى.

كل ما حمله فى رأسه توقف فى لحظة اليقظة التى لم ينتبه لها ليقدر كم طال استغراقه حين صرخ العجوز. ومع ما اعتمل فى رأسه قبل ذلك لم يكن يدين لاستغراقه بأكثر من لحظات من التأمل.

ـــ أبونا يعقوب!! لم يعد يتدخل فى أعمال الدير.

تمتم العجوز وهو يدفع ذا الرأس المستطيل مدعيًا العجلة والآخر الذى يشك دائمًا فى سلامة عقله يستجيب دون التفكير فيما يمكن أن تثيره هذه العجلة من دهشة. ماذا يتغير إلم يتحرك، وما الذى يمكن أن يضيع من الفرص إذا لم يسرع ؟!

مرات يحاول يعقوب ألايفكر فى مرأى السيارة المكرر، ينشغل حينها بفكرة انتظاره الجامد لهذه الإمدادات ماذا لم تأت ؟ سرق

العجوز جوالين كان قد أخفاهما واهمًا الجميع أنهمـــا اســـتهلكا. وهل نستهلك كل هذا القمح. وكيف يكـــون الانصـــراف عـــن الشهوات الجسدية إلم نأمن القليل منها ! وهل كان ذلك بالإمكان إلم تكن هذه الإمدادات، إذ كيف نستجيب لرغبـــة غيـــر مقنعـــة بالتأمل. وهل كانت الفكرة نفسها لتنبع أصلاً من عقل يحتويـــه جسد يتشبث بالحياة التى هى منطقه فى العمـــل ؟ لـــن يســـمح بذلك. يؤانس يتحدث باستمرار عن الصمت بعـــد كثيـــر مـــن " لاتفعلوا " كأنما الصمت ليس بفعل. فعندما تموت كل الأفعال فينا ونحن ننشد الصمت، بأى حياة إذن نســـتقبل الصـــوت النـــدى المقدس بداخلنا. ألا يعلم كيف ينبع ذلك الصوت الضعيف الـــذى كان يرقد تحت تكدس الرغبات والأفعال. فالصمت فعـــل، بـــل أكثر من مجرد فعل، إنه ثورة فى وجه اللغط، انتفاضة لســـلطة قادرة على تحجيم كل الدوافع للحياة وأين هو صمتك ولاتـــزال تنذر وتوقف وتتحدى بسليقة غارقة تحت أصوات السيطرة التى تحركك.

ـــ لعنكم الله تلهون والبطون هنا خاوية بعبارة " إنها مشـــيئة الله وما نحن إلا أدوات لتنفيذها " .

بطن عملاق وشارب مفتول على خلفية من جسد عملاق، بنــاء متكـــامل لإنسان، يمضغ ويبلغ بسرعــة فيشــهق ويــتمخط فيختلط فى مرآه ذنب آدم وإبليس . شتان بين مــن يســتقبلونك وبينك لو كنتم جميعاً هكذا لكان لنا حق الخلاص!!

وبنبرة من يعلم ما يفعل مسبقاً نهر يؤانس السائق الذى حــاول إشعال سيجارة داخل الدير ، فخرج ببطء مطرقا رأســه مخفيــاً راحته لمحاولته التى كان يعلم نهايتها مســبقاً، فليســت المــرة الأولى لكن هذه المرة كان الرجل أكثر قناعة بما يقول .

كان القيء المتعفن خلف الباب الضخم مع شال حريرى عبــق برائحة زيت الزيتون ،ولمن يدقق آثار الأقدام الصغيرة مع طابع جسد باق فى الرمال الهشة هى كل ما تبقى من مريم.

رفس ذو الرأس المستطيل الرمال المرتفعة قليلاً بأقدامــه يقبــر آثار مريم ويؤانس يسأل عنه، وقد تصاعد شخير السائق الملقى بجانب الجدار، أما يعقوب الذى أخذ يحرك كفه فى الهواء فــى اتجاه ذو الرأس المستطيل مشيراً إليه بسرعة الانتهاء، وقد فهم العجوز ذلك فأومأ بنصف وجهه صوب نافذته وقد هم بالقفز فى اتجاه تلة الرمال الصغيرة حيث اطمأن يعقوب لذلك.

ـــ أليس هو كاهن الدير ؟

عاد السائق بها للحياة دون ثقة فى رغبته فى ذلك. كان تابعـــه يحاول أن يشرح باختصار كيف تعرضوا للتفتيش. اكتسى وجه يؤانس باستغراب أفضى به إلى جمود ظاهره الاستماع وما من شك فى أن حديث التابع الضئيل قد صدم داخله شـــيئاً فـــاهتز، شعور قديم بالغلبة أقل ما يوصف به أنه شعور بالســـمو بفعـــل تفويض علوى منح مسبقًا وبلا دليل إلا بما سيضاف إلى أفعالـــه من كل ما هو خارق .. وسيأتى .. هكذا حدث مع الجميع وبذلك يكون وجوده فوق كل هؤلاء أسمى وأكثر قناعة من كل ما يمكن أن يتمتع به أى تابع آخر، فلم يكن أقسى على رجل يمتع نفســـه باعتلاء مستوى شاهق من القداسة من الإلقاء إليه بغضب يهـــز قداسته وسلطته خلال حديث عن سلطة قاهرة لن يملك إزاءها أن يفعل أكثر مما سيفعله أقل تابع بلا سلطة مادية أو معنوية وهـــو الرضوخ.

كانت كلمات الضئيل ترن فى سمعه:

ـــ أمر الضابط جندياً شابًا فاعتلى الحمل، ثقب الأجولة وتحسس محتوياتها، لقد استعمل سكيناً.

فيفكر يؤانس الذى فرط فى قبضة الحبوب التى جمعها خـــلال تسربها من شق فى أحد الأجولة، ولم يفكر الراهب الرئيس فـــى

الطريقة التى تم بها هذا بقدر ما فكر فى مساواته مع الآخر الذى استمر يتحدث وهو يلاحظ يؤانس بتلون وجهه وارتباك أعضائه فيستفيض فى الشرح كأنما أدرك وقتها ما دار فى عقله، منتشياً لمشاركته الرجل هذا الضعف والذى لم يكن غريباً عليه كما كان على يؤانس.

تهدج العجوز عن عمد وهو يمر بيؤانس ثم انفرد بالسائق الغير مبال إلا بذرات الغبار المحلقة حول وجهه، وبكثير من الحماس ترقب العجوز لحظة يقظة مناسبة فألقى إلى السائق بسؤاله:

ـ هل سأل الضابط عن يعقوب. لابد أنه فعل، لقد كان قلقاً منذ أيام ؟

ولم يبد أن سؤاله أضاف إلى لامبالاة السائق الذى استمر يغـط فى البلاهة فعاد العجوز يقول:

ـ كنت أعلم ذلك من زمن. كانت المـرأة هنـا، وذو الـرأس المستطيل علم أن فى بطنها ولداً، أوربما كانت بنتاً، هذا يتوقف عليها وأحياناً على الرجل، عاد السائق يقول:

ـ أليس هو كاهن الدير ؟

ـ يؤانس يفعل كما يفعل الجميع، هل تفهم ؟ تبدو مثل هؤلاء الذين يكونون على علم بكل شيء ولكنهم لايدلون بأى قول. على كل سأضيف إلى معلوماتكم أيها العارفون الصامتون.

ـ كانت هنا برائحتها النفاذة .. كنت أظنها لاتطاق وبعد قليل كانت تحلو لى.

اقترب ذو الرأس المستطيل حاملا جوالا ثقيلا يهتز تحته فصمت العجوز للحظة ثم زطلق صيحة للرجل الذى انغمست قدمه فى الرمال :

ـ عملك الآن جيد، خصوصًا ما قمت به بجوار السور.

ثم عاد للسائق حيث تعمد عدم النظر فى عينه التى أسدلت على غفلة مألوفة.

ـ كان يعقوب يقف فى نافذته ولم يكن يتجه للشرق هذه المرة، بل يراقب ما يحدث كما اعتاد لكن المرأة لم تكن تراه عندما سقطت بجوار الباب الضخم والعرق ينز عنها بغزارة، لكنه لم يخف رائحة الزيتون .كانت تعلم أنها لن تستطيع حمل دورق الماء، تشممته واشمأزت منه كما نفعل مع خراء القطط. المسكينة، لاشك أنها لم ترنى. كانت تبدو ملتهبة من الحمى،

تتحدث إلى رجل خفى وهو يصيح فيها فتنتفض من الخـــوف!!
لاشك أنها الحمى. ثم تهذى :
ــ أغلق الباب. متى تخرج عن صمتك ؟ على أى حـــال فـــذلك ليس بالجديد بالنسبة لى. هل تعلم ماذا أخبرتنى أيضاً ؟
قالت إنها فى طريقها إلى قبر جدتها، لم يكن من السهل عليهـــا إقناعى بذلك رغم أنها أشارت إلى الجهة الصحيحة للجبانة لكن ذلك لم يكن دليلاً كافيًا .. فماذا تفعل امرأة حبلى بين الأمـــوات.
لقد فكرت كثيرًا فيما قالت وبعدما ذهبت حيث أشـــارت تبعتهـــا بعينى، ظللت أراقبها وحين أفقت من النوم أدركت أنها ذهبـــت قبل الغروب بوقت طويل، ولم يترنم يعقوب كثيرًا فى ذلك اليوم، لكن ما بدى عليه من حزن أغرق وجهه بالدمع، ولاتستعجب إذا علمت أنه أعطانى البيض كله الذى قسمه له الأب يـــؤانس فلـــم تكن لديه رغبة فى أى طعام. على أى حال لقد استمر ذلك ..
عندما نهض السائق فجأة كان العجوز يجاهد لإيقاف سيل كلماته ولم يتوقف إلا حين ابتعدت السيارة الفارغة وهو يعوى خلفهـــا ويلعن السائق.

من قلب الأحلام النقى تكون الرؤى. تطلع طفولى فطرى، تدجين ليقين يبعث تطلعاً آخر لاينتهى .. غرق ناجى حيث الماضى المختلط بالثقة، ازدواج الأمل والعزة. تقدم الشياه الصغيرة، تلطف ويمسح عليها وتغلق خلفها الأبواب. ويسمح لصغار الطير بمجالسة الكبار. غرق الصغير الحائر فى شطحات أكبر من الاستيعاب تدفعه إلى المبنى القديم حيث تتجلى النزوة ولامكان للقداسة. بشبقه يهز مريم بعنف. لاسبيل للسجود فى بلاط الآلهة فيستسلم لغريزته. ليس إلا التجاهل لندائك يا يعقوب. سيهدم المبنى، لست وحدى من يقرر. توسموا فى الموافقة ولا شأن لى بخوفك لولا جلباب الولاية لسقطت خارج التاريخ. سربله به العجوز الوصى حين مط جزعه ووكزه فى ظهره فاستقام عوده وتهدلت العباءة حوله فشدها الوصى وغزل عمامة ثانية أمامه وهو يدقق أكثر مما يلزم للهروب من اندهاشه ،بعدها طوى الرجل ما فاض من العباءة وأحكم تثبيت العمامة، وكان أن بقى فى وضعه حتى انتهى الجميع.

شربوا جميعًا فى تلذذ وأعادوا الأكواب فارغة وهو يفكر فى المضى مخافة الغثيان، والصوت الحزين من بعيد يبتهل فتضيق

روحه عن احتمال الشجن فيحتضر فى وقوفه أكثر مــن مــرة. ويمر به كفن ممل تخلو فوقه السماء فتخور سيقانه حيث هــو. يعود العجوز يشد العباءة المتهدلة. ضئيلاً كان. فى خضم الثورة لايدرى عن التآمر شيئاً. ألقى برضيع فى صدر المجلس فضاقوا بنبره المتقطع وأمر بإسكاته فحاول مرات حتى عجز.

ـ ٢٠ ـ

اهتز صبى المقهى المزهو وهو يحكى:

ــ الضابط الأسمر ذو الندبة. وهزأ فى تردد .. يغضــب حــين يقال عنه هذا. أكمل فى اتزان :

ــ كان ذلك فى الليل بعدما أغلق الشاب الباب فى وجهه .

ــ سمعت أنه صفعه . قال ناجى مجربًا وقع مداخلته.

فكر صبى المقهى كثيرًا ولم يكن الخوف بمانعه من الاســتمرار أمام اقتحام ناجى، فاختار أكثر نبرات صوته ضــعفاً ووافــق. فأطرق ناجى.

ــ المرة الأولى هى. يصفعه شاب ولابد سيبحث الآن عنــى .. قلق لايخفى ثقة فى النجاة. خوف قديم ملأه حين وقف بالبــاب بنفس الاعتدال يفكر، لست أول من يغتصب السلطة، ربما تكون سلطة زائفة لكنها رغم ذلك تليق بى.

وقف يعدل السترة السوداء الضيقة وقد أحكم إخفاء ملامحه. سئل المرأة المرتجفة عن زوجها وهى تحاول أن تقبل يده.
عجوز متهالكة تأبى أن تموت واقفة، لولا انحناؤها لعـــاد لتـــوه دون كلمة واحدة. اقتحم البيت العبق بالعفن، عمد إلـــى حجـــرة المعيشة يفتش ويسأل عن مال مسروق. استخرج دفافة، وبعـــد اطمئنانه لمحتوياتها دسها فى جيبه. خلفه وقف اثنـــان بالبـــاب يدخنان يحاولان أداء دور الحائط، صرخ فيهما، قلـــب الأثـــاث الملفق فانتشرت رائحة يانسون يغلى فخشى الغثيان وخرج. هذا أفضل، تنامون الآن على ضعفكم .. لائق بكم هذا الضعف، أكثر من الاستجابة لما تسمعون فى الصلاة. اليوم تقفـــون وتتحنـــون وهناك أنتم نيام .. ماذا سيفعل كلب الحراسة أكثر مما فعلت .
ناداه صبى المقهى فعاد ناجى مشوشاً من صمته.
ــ ماذا حدث بعد ذلك ؟
ــ خرج الجميع وتقافز الأطفال بينما بكت النساء والشاب يجـــر خلف السيارة. فقد كان عاريًا . لم ينتبه ناجى للكلمة الأخيرة إلا حينما أعادها الصبى. وبرغم كل ما لمع فى ذهنـــه فـــى تلـــك اللحظة فلم يجد لديه ما يثيره فى ذلك إلا شعور قـــديم بالجســـد. وأثناء رغبته فى صفع الصبى الذى استمر يكرر ما قـــال كـــان

يتعمق أكثر فى تخيل الفارق بين ثوبه وثوب عادل. وبرغم مـــا أخبرته به مريم عما يجب عليه من تعديل هيئته لم يكن هنـــاك شيء مقنع لتصوره أكثر من ذلك. أما ما فعله سحل الشاب فـــي ذهن ناجى فقد تجاوز مدى الألم إلى التسليم الذى أفضى به إلى صمت لايخرج عنه بعد ذلك غير اليقين بحقيقة ضعفه وعجـــزه أمام بطل حكاية الصبى، فاندفع إلى مستمعيه.

حدثنا فلان عن فلان. حاول تذكر القائد الذى كان يود أن يحدثهم عنه ففشل، لكنه تذكر قائداً آخر فقال:

وقف الفرعون يكرر بصوت هادئ .. هاهو جيش العدو أمـــام، من يأتينى برأس أحدهم يكون أقرب إلى .. مطوا ألجمة خيولهم وخرج ثلاثة من الفرسان، شقوا الغبار واحمرت وجوههم مـــن الثقة، والفرعون خلفهم يكمل .

ـــ ومن يفشل أكافئه على طريقتى. وحين عاد أحد فرسانه برأس من العدو يتقطر دمًا، كانت رأس أخرى بيـــد الفرعـــون وقـــد تدحرجت على الرمال وكانت عيونها بليغة، تنز حمقًـــا. عـــاد الفرعون راضيًا يتبعه قواده مخلفين وراءهم رأس قائدهم حاملين رأس جندى من الأعداء.

أصبح كل ما يمضى من وقت عبثًــا عليــه، يهــدده بالغثيــان ويحاصره مع الكابوس النتن فلم تؤثر فيه نداءات التابعين الذين نطقوا الآن بما عجز عن فهمه. فكان انتماؤهم إلــى مســتويات مختلفة من الفهم سببًا فى تورطهم فى الخلاف حول الفرعــون. أما من رأوا استحقاق الفارس للقتل فكانوا يبررون ذلك بأنه مــا من شخص يتصدى لتنفيذ رغبة الفرعون ولايكون قادراً علــى ذلك إلا ويستحق الذبح، إذ يخلف بفشله أملاً لدى عدوه. وهم فى ذلك غير مبالين تمامًا بما يدعيه الآخرون الذين رأوا قتل رجل مهم يعد مبالغة فى العقاب حتى لو فشل فى تنفيذ أمر الفرعون، ورأوا من الأفضل إرسال جندى صغير لتنفيذ المهمة فإذا ما قتل خبا بالشرف والعظمة، وإذا فشل فلن يكون قتله خسارة كبيــرة، لكنهم جميعًا اتفقوا على أن الذبح كان عقابًا مناسبًا .

ـ ٢١ ـ

صمت ناجى قليلاً أثناء مروره بين قائمين خشــبين يبــروزان مدخلاً واسعاً يتوسط جــدارين طينــين. أى قــدم يبقــى بهــذا الوضوح. روح الأرض. دماء رطبة جفت بفعل الزمن، أكــوام جادت بها الأرض، حناناً أم شفقة ؟ لاسبيل للإجابة أمام كلاحة

البناء نصف المتهدم ونصف موشك، بأيهما يفكر ؟ ! لو صح قدم الحياة لصح أيضًا قدم الجماد. فبم يمكن للحياة أن تستمر ؟.

مر قط يسير فى اتجاه المرأة المتراكمة.

ـ كسيحة يحيط بها العفن. كانت مريم تقول.

كان يبحث عن الأكواب ويتفادى مرأى كتائب العناكب فى معسكرات شغلت نصف الفضاء العلوى بالداخل.

لطمته الخيوط المدلاة فاقشعر بدنه وارتجف، والمرأة تحدق فيما يحمل وقد بدت عليها القناعة لكنها حاولت التقليل من شأن زيارته.

هل قابلت عضو المجلس فهو يدعى الجود مع أنه لص قديم. أنا أعرف كل شيء عنه. كنت أتجول بحرية منذ زمن، كان البعض يرانى لافتة للنظر، لكنك لن تدرك ذلك فلا تحاول.

رأيته فوق زوجة جاره وكان مهاجرًا لا يزال غريبًا . عاهرة هى الأخرى، كانت تتسوق لى اشترت لى مرة قطعة قماش حرير مغشوشة، فلما ذكرتها بالرجل قالت إنها تزوجته بعدما مات زوجها ولم يكن ذا فائدة كبيرة، ولم يكن الرجل قد مات لكنه لم يظهر بعد ذلك أبدًا .

شمطاء أم مسخ. تطقطق علبة بلاستيكية تجمد فيها الماء وهي تدفع قالب الثلج فيسقط ،فيغلب ناجي شعور الغثيان فيتراجع، تقتحمه.

ــ تقيأت دمًا هنا مرة. وهناك بقرب الباب تقيأت مرتين. جاءوا بالكفن ومطوا أقدامى .. لقد جعلوها تتحرك ولم يكن ذلك سهلاً

. لقد كانت معتدلة كما لم تكن من قبل. قرأوا علىَّ آيات عن الموت.

هل كنت معهم ؟ ! تبدو قريب الشبه بمن كفنونى لحيتك تشبههم، لكن ما حملته لى اليوم غير ما يأتوننى به .. فواكه وجوال قمح .. هل حصلت على كل ذلك قريبًا. سرق بيت قريب منا، سطا عليه اللصوص فتشوه واستولوا على ماله وأقماحه. لاتبدو محباً للكلام. لو كنت كذلك لما حملت كل هذا إلى هنا. هل تلزمك أدعية أو ما شابه. إذا أردت أستدعى البعض ليعلموا بشأن الزيارة الكبيرة .. كلهم يفعلون ذلك لن يستغرق ذلك كثيرًا .. سأدعى الألم وسيسرعون إلى هنا فهذا كل ما بإمكانهم، دائمًا، لكن ..

وقامت تترنح تدفع الأكياس أمامها صوب غرفة جانبية.

محسن مخدوع لم يع ما يفعل أسكنها هنا. وطنها رقيبًا على النفوس، أبطال أخساء أعادوها للحياة وهى تجاهد الموت فى صداقة .. لوتركوها لماتت راضية. صك الصلاح تملكه هى. لن تكتمل سطوتك دون عبورها. الآن تنحنى تقبل يديها وتمسح العفن حولها ولايخفى عليها أن الجميع رهن ما سيعنفهم به لسانها لاسبيل إلا حشو فمها، لكن كم يكفى لذلك؟!!

مسهبة فى تقربها تتمخط الكسيحة فتزداد شبهاً بتمثال نصفى متخيل لعنقاء، تتخذ من نظرها سلاحًا لبسط سلطتها ومهابتها. كان توددها المصطنع ينم عن محاولة لمحو ما أثارته تفاصيل قبو العناكب داخل نفس الرجل. رغب ناجى فى التعبير عن دهشته من هذا التوافق مع كائن اعتاد الالتصاق ببساط قذر من فضلات آدمية، لكنه فضل إثارة الاستفهام الذى علق بذهنه منذ لحظته الأولى .. إن المرأة تتحرك لأعلى وأسفل على قاعدة من قدمين إحداهما كسيحة .. كيف كان ذلك معينًا لها ليخشاها الجميع ويبذلوا لأجلها كل سبل التودد كما لم يفعلوا لغيرها، مع محاولتهم الدائمة لنيل رضاها. فكر أن ما افترضه هؤلاء الناس لأنفسهم من قيم ادعوا الالتزام بها وضعهم بصورة أو بأخرى تحت رحمة من يضمن التطبيق الحقيقى لهذه القيم، وكان أن

أجادت المرأة استغلال ما أوتيت من سلطة .. وهـــى انفرادهـــا بتحديد من يوصفون بالفضيلة. ولـــم يحتـــاطوا لمـــا يمكـــن أن يورطهم فيه هذا الادعاء من وضع الحكم النهائى فى يـــد هـــذه المرأة. ولم يكن استمرار الصمت المفضل لديه إلا نتيجة طبيعية لما منى به من صدمة مفاجئة تصور فيها نفســـه واحـــدًا مـــن هؤلاء، فلم يجد داخله حماسًا يكفى لتذكر مريم التى غلبت على كل مكونات ذهنه منذ دخوله حين حكت المرأة عن حملها، فلـــم يكن من سبيل لتجاهل ما ثار بداخله من حيرة كان باعثها اهتمام حقيقى بالتأكد مما يسمع أو محاولة استنباط أى شىء يشير إلـــى ما تحمله كلمات المرأة من أخبار مهمة عنها وعن الجنين. وحين أشارت إلى هلاوسها، لم يكن يتابع حديثها بدقة عن الأم العجوز فيسمع صياحها .. صخرية فى ثباتها يصفونها بالحكمة أحيانًـــا وبالشر فى الغالب، تكدس رمالها وتتعقب طوابير النمل وتقول:

ــ أنتم جميعًا قتلة، لاتنتظمون بغير توجيه .

ولايخفى الغضب والحقد فى صوتها عمـــق معرفتهـــا ببـــواطن الجميع، تقتل أول الطابور فيتشتت تابعوه وتسطر فـــى الرمـــال مسارًا آخر فيتبعوه. تعود تقف بين أقبية العناكب. أمـــا المـــرأة اللحيمة الباقية فى كساحها فلم تعد تبالى بشىء من ذلك. لكنهـــا

تتذكر جيدًا كيف تستمر فى أداء دورها. لن ينسى الجميـــع أداء واجبهم بانتظام.

كانت المرأة تتعمد قضاء حاجتها دون تلميح قبل أن تفعل بينمـــا تسدى أوامرها إلى عدد من النساء اللائى يتطوعن لخدمتها وهن يعلمن أنها لن ترضى بأقل من الأقمشة الحريرية وأجود أنـــواع الفاكهة مع مخزون دائم من الكماليات الصغيرة.

تزداد المرأة انفعالاً فتستهين بما قدمه ناجى فتقتحمه محاولة أن تخفى ما يعتمل داخلها، ولولا لمحت فى وجه طفل مريم مثـــل هذا الصمت والتطلع فى هدوء لما ذكرته به وهى تلقـــى فـــوق مريم بغطاء صوفى، كانت تنتفض منه وتختلج كمقدمة مخـــاض مروع لعذراء، فيثقل رأسها وتعصى سيقانها الحركة أمام ثقـــل غير محتمل . تندفع مقاومتة فى كـــل اتجـــاه، فيطوقهـــا الألـــم ويستحيب جسدها ببكاء من عرق. تنظر النساء حولها وقد جفت الأسئلة فى أفواههن وضاعت معالم الاستفهام لديهم أمـــام ألـــم حقيقى لم يكن ليعبر عنه بأبلغ من هذا النحو الذى شمل المـــرأة الكسيحة كإخفاق غير متوقع لتجمدها القديم. وهى ترى أكثر مما يرى الآخرون منه.

لمذا عاد الكابوس بما يفرضه من اختناق يشق الخـــلاص منـــه.
متى علمت مريم ما يخفيه داخله حين ابتسمت فى مكـــر وهـــى
تسأل عن أنسب شبه يليق بطفل لها، دون أن تعى ماتقصد حينها
كمن يرى فى نومه شيئاً فيشق نومه إلى اليقظة بما يحمله فـــى
رأسه. وبعد أن يكون لها طفل .. حقيقة تقلقه فى تلك اللحظـــة،
عن الكاهن. وهى تغنى وتصحبه فى صـــباح الأحـــد المنتظـــر
تتحسس الماء وعندما تقابله تكثر من الحديث عن الصفح وتتطلع
إلى جبينه لتعود بشهقة مختصرة لنجوى خفية يعتمل فيها مـــرآه
وعرق وجهه مع رعشات اللذة مجهولة المصدر.
حين وصل ناجى لتلك اللحظة احمر وجهه وتفنن فـــى ابتكـــار
ألاعيب بيديه أفرغ فيها توتره دون أن ينسى أن ما زلزله كـــان
خاطرًا عن هذه المراوغة، ودونما اعتبار لما يبديـــه هـــو مـــن
مراوغة، لم يكن يرى سوى انفلات فى مشاعرها غير محسوب
ولامصحوب بتوجس، فيضفى يقيناً بصدقها، لكن فى لحظـــات
نطقها بكل ما يتعلق بالقداسة كانت كلماتها تشى بخبايا أكبر من
مجرد إجمالها فى انفلات امرأة.
حين أخبرته المرأة عن النساء وهن يستنهضن رحمها للمخاض
تضاءل لديه الفرق بين ما يظنها عليه وما هى حقيقة.

ـ كانت تشد على جذعها، تركل وصيفات المخاض كملكة نمل يعز عليها أن تلقى بمحض إرادتها بين أيدى رعاياها فى أضعف مراحلها ودونما أى قدرة على فرض ما لها من حقــوق ملكيــة عليهن. هن ينسقن الفراش متعمدات التحاور خلسة وبحذر غير مدركات أنهن لايضفن سرًا حين سمعتهن يروين حكايــة عــن امرأة شبقت لفرط حسن إيروس فأسلمته مفاتنها وهــو يعلمهــا أسرار العشق. كانت تحلم باعتلاء عرشه فيقال جلســت علــى عرش إيروس فلا أهمية فيما بعد لما يقال عن تنصــيبه إلاهــاً. وحين تلقى آخر سيصبح لها إيروس جديد مادام يحكم أداء دور الإله. ليس فى كل حالاته، إنما فى ســطوته ومجــده وآليــات تنصيبه لكنهم أيضًا لهم جميعًا هذا الحلم وهذا الأمل فيما لديها .. ملكة الجميع حين يظنون امتلاكها اكتمالاً للعرض غير منتبهين إلى أن ما يسعون إليه يعتمل داخلهم باسم الحب مــرة وباســم الزواج أو حتى الطاعة إنما ينحدربهم إلى الاحتشاد فى مقابــل بعضهم بعضاً شاهرين كل ما يمتلكون من أسلحة، حتى لو كانت قداستهم ذاتها بكل ما فيها من جلال. وقــوف هــم علــى رأس خطاياهم أدوا دوراً رسم لهم لم يستوعبوا منه أكثر من إغــراء بطموح بل برغبة حقيقية، لكنها – حتى الرغبات الحقيقية – قد

لاتنبع من الحقيقة، بل من ادعاء الحقيقـــة ..وعنـــدها تتشـــابه الصور فتتساوى الحاجة بماديتها الرغبة فى نزويتها مع التطلع فى سموه فلا يبقى إلا ما اختلط بدنس المادة ، فيقبل الجميع أداء الدور ، ولاداعى وقتها للحديث عن الحرية ،لأنه حتى الحريـــة نفسها يمكن اصطناعها وفق حقائقنا الخاصة ، فلا يبقى وقتهـــا مبرر للحديث عن ألوهية إيروس أو غيره من الآلهة .

ــ ربما هذا الوجه هو الأكثر شبهاً بما سيصير عليـــه. فكـــرت مريم فى وجه صامت دائماً، وهى تحمل جنيناً رطباً غير محدد الملامح لكنه لواستمر بصمته فلن يصل لشىء.

ــ ٢٢ ــ

ربما أكثر جرائم المستقبل بشاعة هى طريقته فى تقـــديم نفســـه كشخص مطيع لم يفعل إلا ما أمرناه به فأتى به على أكمل وجه فلم يكن جائزاً لومه، بل صح أن نلوم أوامرنا ربما قبل أن نلوم أنفسنا فلن نشقى بالشىء وبذنب الإتيان به، لكن ســـيبقى دائمًـــا داخل النفس ذلك التصور بعدم إمكانية تغيير الماضى حتى وإن كان قد تغير بالفعل فما كنا شيئاً جديداً ، تضاءلت جودته بفعل اتساع مفاهيمنا إلى سىء ، وستلتصق به الصفة الجديدة دائمًـــا منذ اللحظة التى تم استيعاب مساوئه فيها.

عندما تحلق جمع من الكبار مندهشين لم يكن تصارع الاثنين مهمًا بقدر ما كان استغرابهما.

ــ يبدوان أخوين، على الأقل يجمعهما شبه.

ما دار فى نفس ناجى أرغمه على التوقف لمسح دمه وليتجنب النظر فى عينى يعقوب والجمع يتداخل بهمهمة غوغائية لاتنم عن شيء، لكنها تعنى دون شك عدم الاتفاق. يختارون أكثر الطرق إثارة للاستفزاز فيعتبرونها حلاً. لكنها لو كانت حقيقة بمعنى ما أفلم يكن هو أقرب لاستيعابها ويضيف معتوه بلهجة مناسبة لعتهه:

ــ دائمًا صامتان وأول ما يكسر صمتهما عراك بينهما.

تلقى يعقوب تعقيبه كمفاجأة ربما لم يكن الصمت غريبًا، كما لم يكن غريبًا إدراكه، لكن ما كان مفاجأة هو تساويهما فيه عن الصمت إلا إذا كان صمتى يعجبه. ما الذى أتى به اليوم للبناء. وهو يعلم أنى عانيت وحدى فى بنائه. حملت الأحجار أكثر من غيرى حتى انفلق ظهرى. وحتى لو كانت مريم سببًا لمجيئه، فماذا عن الشبه. ألم يتحدث الجميع بذلك فأين هو من هذا إذن. مراوغ بمثل ما هوضعيف أفلن يجف غروره.

أما ناجى الذى شغلته فكرة التشابه واهتدى إلى فكرة أنه ربمـــا كان استمرار كل منهما فى الصمت سببًا أدعى للانصراف عن إدراك ذلك. بل وأكثر من هذا أنه لن تتـــاح الفرصـــة لكليهمـــا لإدراك ملامحه الخاصة أو إدراك التشابه مع غيـــره. وربمـــا أدرك خلافًا فعلم مواضعه ولكان حينئذ أكثر قدرة على التشـــبث بما يختلف به داخل هذا التلازم بينهما. لكن حين تأتى إلى هنا يا يعقوب تقف جهة الشرق فى السادسة أو التاسعة، تنتظر صـــلاة لن تؤديها، تكون أنت وحدك من ينتظر صلاة فى معبد لم يطأه الرب بعد، وحدك أنت من يرى هالاته وتحلم بتجليه فتدور حول مذبحك الساذج ببقايا أخشاب كانت موطئى منذ قليـــل، بيقينـــك، حين تحمل مبخرة متهالكة .. تصفو بدون مبرر، تنشد وترتـــل وتزدحم حولك الرعية لا يراهم غيرك، أفلن نقول وقتها كيـــف كان اختيار الرب. كيف رسمك وحدك أبًا دون رعية. مـــا لـــم يمكنه تجاهله هو زهوه وضخامة عباراته على طريقة أصحاب العرش.

ـ ٢٣ ـ

تعلمت الكسيحة مجالسة الأوانى الموروثة الصدأ والاتكاء بجسد هلامى لاتقلقله النتوآت والبروزات الطينية الجافة على جـــدارها

الوفى. ربما أكثر قربًا لها من أى شيء .. تحصى فيه ما يفوتها من سنين. جرار الماء الآسن وصمودها على مـــر الفصـــول، رمالها المكدسة حول الجدار تشغلها طوال الوقــت حتـــى أنهـــا رفضت مقابلة موظف رسمى يعرض عليها مد ميـــاه مكـــررة خلال نفق تحت جدارها، وهددت الرجل الذى اضـــطر لطـــرق الباب حتى تورمت يده بسببه وادعاء اعتدائه عليهـــا، وكـــان أن تناهى خبر مشاغباتها إلى سمع ضابط الشرطة والـــذى ذهـــل الجميع لموقفه حين منع عمال شركة الميـــاه مـــن الحفـــر فـــى شارعها بدعوى الإخلال بأمن السكان، كما حرر فى محضـــره ثبوت امتلاك جميع سكان المكان مضخات مياه جوفيـــة داخـــل منازلهم.

كان احتراسها من غضب ناجى هو ما جعلها تعتبر إطراقته وقتًا مناسبًا لتقول:

ـــ إنه يعرفك، يعرف كل شيء عنك، لكنه لايحب أن يعرف أحد أنه يتحدث عنك. هل تشرب حقًا ينسوناً. يعلـــم أنـــك تشـــربه. ومسبحتك طويلة.

لم يرد الكشف عن طبيعة استيعابه صراحة . لكنها حكت له عن رغبته فى اقتحام مخبئه بعدما تأكد مـــن وقوفـــه وراء شـــغب

المزارعين. هى أيضًا تعرف كيف يلج إلى هناك محافظًا على الباب الخارجى مغلقًا باستمرار. ومما زاد استغرابه شرح الكسيحة طريقة الضابط المألوفة فى الابتسام .. ينشق فمه عن خيط رفيع متعرج تحده الشفاه، يغتصب لنفسه مسارًا فى الوجه الصلب، أما عندما تحدثت عن سمرته فلم يكن أمام ناجى سوى الاندفاع فى فكرة مؤداها يثير بداخله من العجز أكثر مما يثير من من الدهشة. فبينما تقف امرأة مجردة من كل شىء يمكن أن يضفى على وجودها أهمية، تنفرد وحدها بتجاوز كل ما يبعث على الخوف أو الترقب. إن طريقتها فى التعامل مع آخرين تعلم جيداً مدى حنقهم واستهجانهم لكل سلوكياتها لباعث على الاستغراب. على وجه الخصوص حين يعى هؤلاء أنه ليس بإمكانهم إلا الرضوخ لهذه السيطرة، وحتى لو كان ذلك ممكناً يبقى هناك ما هو أكثر غرابة ودفعاً للإحساس بالعجز أمام ذلك الكيان الملىء بكل ما يمكن أن ينفجر فجأة فيثير انفجاره لغطاً يحتاط له الجميع إلا هى .. وهو تمكنها من اعتبار الضابط واحداً مثل الجميع، لكنه ناجى يعلم مثل الجميع، بل أكثر من الجميع أنه ليس مثلهم. ولو صح ذلك لما كانت أهمية لما توسمه فى سترته، ولما نهر المرأة العجوز بكل ثقة وهو يرتديها وهو

يود لو صرخ فيها فتقف أمامه وهى تبالغ فى الانحناء فيتمــادى فى زهوه، يتأنق أكثر، وخلفه صنمان أدى وجودهما دوره فــى إثبات قوته وفى استمرار السكون الذى ساد المنزل الخاوى. كان يجلجل بنبراته الهادئة التى حملت فى انخفاضها وعيــاً كبيــراً بالغلبة، إحساساً بالسيادة مر خلاله فى كل أجزاء المكان يعبــث كما يحلو له كأنما صمت الآخرين قربان لم يلحظوا خلاله مــا فقدوا من أشيائهم الثمينة وهو بعينه السائدة يحاول تقــدير كــل شيء فيبدو كل شيء رخيصاً فى مقابــل مــا اغتصــبه مــن انحناءاتهم ومحاولة تمددهم أمامه.

ـ ٢٤ ـ

من يحبه ينادى فى الناس بحبه ومن ينصره فلا شك أنه ناصره ومعل من شأنه .

لكنه الحب ما ينسف الغلبة فلا يبقى إلا تباسطاً بطعم التواضــع. ومن بين اللحظات الكثيرة للحياة تبقى لحظة ينحنى فيها كل من تصدمه المسافة بينى وبينه. فلا ضراعة فى الحب لغيره، أما ما يضاف من مجد فيحق لنا، بل لى. أما هى فســواء كــان فــى تصورها لى شئ من الحب أم قبس من القداسة. فعل حرى بهــا دائماً. فلولا ذكرت أمامها ذلك لكانت تتردى فى قــاع الحيــاة.

لكنها بعد أن علمت ما يمكنها باسم الحب من القفز عالياً عن مكانها كانت تستثمر جيداً هذا التواضع، وحين تراه اختصاراً لكل المسافات الصعب تجاوزها بالنسبة لها، سأضاعف لها سيرها. سأضاعف للجميع ذلك. وبصق ناجي ثم مضى محمر الوجه.

ـ ٢٥ ـ

أناتها الأولى كانت رجاء ومن رحم الشوق كانت تنبت أسمى آيات الإجلال. وهو يفضها تعجز مريم عن النطق بالفرح. كيف وهو لا يجوز لعذراء. أما هو فلن يكون فعله مبرراً لاعتبار ارتباطهما حقيقياً .

تركيز ناجي وتصلب وجهه عكس إيمانه القديم باعتبار السبق دافعاً لائقاً في كل وقت وقبل أي فعل .

ـ كنت دائماً أتمنى هذا. سأطعمك مثل طفل يحبو. وألبسك بنفسي فلتفحني رائحة المسك . وتصمت مريم لكنها تستمر تفكر. وأسألك عمن قابلت. ماذا قلت ؟ كيف واجهوك ؟ وحين تخشى أن تعلن بصراحة عما فعلت أكون أنا وحدي من ستقرر غفرانه. لكنه يعلم تخاطرها ليس بأن يسمعها لكنه فكر مسبقاً فاحتاط .

ـــ لاحساب إلا أمامه. فلا يعلم النوايا غيره وأما مـــن لا يفهـــم عظمته فلا يحق له الحساب .

وتتضاءل شهيتها للقاء فتردد فى خفوت:

ـــ طوع أمره وأمرك.

ينتهز خضوعها فيبالغ بتواضع فى معنى الطاعة والأمر.

يحثها على الرجوع إليه فى كل شىء وعلى اعتبار رضاه هدفاً دائماً. يخفت أملها بين يديه فتكتفى بالشبق وهى تلحظ استسلامه أمام سطوة إغرائها، فيستمران فى الصمت ويعانقها دون النظر وهى تجاهد فى احتواء آهاتها بينما يثب بقوة، وفى كبريائه يأبى استنفار ماديته بالامتزاج بكل تفاصيلها فيفكـــر فـــى الانـــدفاع داخلها .. وفى الاعتلاء سمة السبق، هو ما يفنى رغبته خلاله.

تغلب صورة تطبعها انحناءات وارتفاعات وانخفاضات الجســـد البض فيتعثر أمام استخضار لون جسدها، وهو على إبائه أمـــام التراجع والتناظر فتسقط نظرة مجردة مـــن الكبريـــاء، ملؤهـــا الشبق، وحينها تنطلق آهة ستفرغ ثورة شبقية دافعهـــا العشـــق والإمتاع فيتضائل ما بناه، ينهار فى مواجهة رعشة الأعضـــاء. وحينئذ لا يبقى من نزق السلطة شىء إلا ما يتجاوز به حـــدود الجسد الفاتن تحته. وما بين الاحتواء والانتهاء زلة جسد يبلى مع

تكرارها بريق المرأة داخله، فما حمله منها ليس أكثر من صورة حاول تجمعيها فى حضورها فاستمد من رأسه كل شىء حتـــى انتهى.

أما ما يعتمل داخل رأسه فهو كثير صدئت أمامه صورة امـــرأة عجزت عن التزود بالواقع فبليت أمام الزمن.

ــ ٢٦ ــ

تنقلت المرأة الكسيحة فى خط متعرج متفادية بإتقـــان مخيمـــات العنكبوت المتدلية فى فضاء المنزل واستقرت بين آنيتها الرثـــة. صوت غناء قديم يملأ المكان. تحدث الطيور تـــدعوهم لوجبـــة معتادة من فائض الحبوب عندها. تقتسم ماءهـــا معهـــم وتهـــز موقدها الكيروسينى لتقدر الوقود بداخله. تطمئن لذلك فتعد أرزاً ولحماً كثيف الدهن وتتشمم بأنفها على جانبها فتهتـــدى لمكـــان وسادة عتيقة تعلن رائحتها عنها، تدس يدها تحتهـــا، تســـتخرج دواء للسكر وقبل الانتهاء من الطعام تداهمها طرقات مدوية على بابها الصفيحى وتنتشر فى أسنانها رعشة يثيرها احتكاك أظافر قوية بالباب. يصل صوتها للطارق فيدخل بطريقته وقبل أن تسبه على اقتحامه بيتها تتراجع فتستبدل ذلك بكلمات ترحيب صغيرة حين تراه. بعد لحظات يعطيها مبلغـــاً ماليـــاً، تتـــابع طعامهـــا

متفحصة لفافة المال الورقية. يخبرها أنها مائتان، تفرغ كل اللحم أمامها وهو يعلم أنه لين يحصل إلا على شريحة واحدة مقطوعة بعناية. ينتهى منها بسرعة ويبلغها رسالة:

ـ حضرة الضابط عادل باشا أمرنى بذلك.

ـ هو من أعطاك المال.

ـ لا، هل تذكرين الثرى الذى سببتيه ؟

ـ أعطاك المال لإرضائى.

ـ أخبرته أن عادل بيه ربما يريده اليوم فى مسألة تتعلق بتعاطى وبيع الحشيش.

ـ ألا يعلم سيدك أنه يفعل ذلك منذ زمن ؟!

ـ يعلم، وهو أيضاً يدفع منذ زمن.

ـ إذن أعطاك أكثر من مائتين. كما أنك لم تهدده وحده.

أخرج الجاويش مائة أخرى ودسها فى الوسادة مباشرة، وهى تتابع الطعام واستمرارٌ فى استدراجه كانت تتصنع عدم المبلاة بما أضاف من مال. يسألها عن ناجى فتذكره بمزور يتقاضون منه أموالاً كثيرة.

تدخل امرأة صدئة تتعرف الجاويش المسن. تفكر فى التراجع فتدعوها الأخرى.

ـ هى من ساعدت مريم. كانت تحممها فى حملها، تغسل ثيابها، تطعمها، وتجففها. تريد التحدث إليك. تقدمت الصدئة فى زهـو قائلة:

ـ لم تكن تثق فى أحد غيرى. سقطت مغمى عليها وكنت علـى رأسها، علمت أن فى بطنها جنيناً يود الخروج. سيدك يعـرف أنى كنت معها .. لقد رآنى وهو يودعها من اسـتراحته. قالـت وهى تفكر فى التراجع .

تسمر الجاويش للحظات ولم يفق إلا عندما سمعها تتحدث عـن ابنها.

ـ دفع مائتين وجاءنى يطلب مائة أخرى. لم يكن فى مقدورى ذلك. صمتت للحظة .. لكن سيدك أصر على أن يودعه السجن. قالت مريم إنها سمعته يصرخ وكانوا يضربونه بقسوة. لا أصدق أنهم علقوه من قدميه.

ـ ولدك يعرف أنه مزور وقد اعترف بذلك.

ـ فلماذا إذن يضربونه ؟ !

انتهت المرأة اللحيمة من طعامها ممتغضة لاضطرارها للتوقف عن رياضتها الممتعة أمام هذا الحوار وهى تجاهد فى تجاهل ما يعتمل بداخلها بخصوص عادل. لم تشأ تكرار الاسم كما هـو،

عادل قاسم، لكنها حين قبلت المال الذى بعثه إليها تفكــر فيمـــا فعله. حين فكرت فى تقديم المرأة إليه لم يكن جاويشها الســـاذج يعلم أنه خصمها، وبفعل فارق السلطة لصالحه كانت مضـــطرة للخضوع فى حديثها معه. أما عندما ذكرت واقعة سقوط مــريم بحملها وارتبك الرجل فقد عاجلته بما تريد وهى تعلم أنه سيبلغ سيده بكل ذلك، لكن عندما هاجمها الرجل بصوته المنفــر كـــان يحاول اتهام ابنها بارتكاب جرائم يستحق عليها أى عقاب حتـــى لو كان السجن معلقاً من قدميه.

ـ ٢٧ ـ

نجس يتصنع الطهارة، دجال فى زى قاض، يتظاهر بالتســـامح ولا يفعل إلا الارتشاء. يهدد بالعدالة ولا يعلم عنها أكثــر مـــن تقدير ثمن كل جريمة وجمع الإثمين آخر كل أسبوع.

يغلى ناجى بالبغض لكيانه الجاف. يلقى عليه سلاماً جافاً بمعنى السباب ويكمل وجه الجاويش المتشفى.

ـ كان سيدى يبحث عنك. دل رجل عليك .. هل اقتحمت بيتـــه فعلا ؟ زوجته قالت إنك كنت ترتدى سترة عالية الرتبة وأنهـــا قبلت يدك.

فكر ناجى بهدوء من يعلم أن هناك حلاً لكنه يؤجله حتى يتـأزم الموقف. لكن ذلك لم يحدث. كان يدس فى جيبه كيفه الخـاص ويطمئن لرؤيته المبلغ الذى أحاط به لفافـة الحشـيش. مسـاء سيخور ويفقد الوعى.

ـ بالأمس كان شاب شقى ، لا يتوقف عن ارتكـاب الجـرائم. أجلس كثيراً أتأمل واجبى وما يتحتم على فعله إزاء هؤلاء، وهو لم يرد إعادة الحقوق لأصحابها. قبضت عليه.

يرغب ناجى فى إيقافه لكنه يتراجع فى الوقت المناسب.

ـ ظن أنه باعترافه سيفلت منا، لكن ماذا يفيد الاعتراف بجرائمه الصغيرة، سيخرجه القاضى كما فعل من قبل. لذا فقد كان مـن واجبى أن أقدمه كمجرم حقيقى، وبما أن الجريمة واحدة حتى لو كانت سرقة قفص من البرتقال والتى لن يفهمهـا قـاض ثـرى فيعتبرها عملاً ساذجاً ويأمر بغرامة أو ربما يسدد، المـال مـن جيبه. أما أنا فحين أفكر فيما على فعله أجد أنه يجب علـى أن أنزع منه اعترافاً أكثر لياقة، لكنى لا أفكر فى إيـزاء هـؤلاء المجرمين المساكين .. فأعفو عنهم .. أتركه بعد أن ينال عقابـاً كافياً.

ـ ويصير دائماً مهدداً بسطوتك بسبب جرائم لم يرتكبها وتزيـد الأموال التى تتقاضاها نظيراً لشراء تسامحك الـذى هـو حـق مجانى لرجل لم تفعل به الجريمة أكثر مما فعل الخوف.

ـ ٢٨ ـ

ماض من المجد يتسول حلمه الآن تدفعه بعيداً حيرته.

علم ناجى كل ما يمكن عن نفسه فى تلك المرأة. لم يكن يريـد الوقوف خارج السباق، فلم يكن مثل الآخرين. يفضل الصـمت. والطموح بالنسبة له لا يتفق والخيال، وفى الوقت الذى تفادى فيه الآخرون المواجهة مع الضابط وجاويشه المرتشى وهم يؤمنون بحل خفى منتظر. كانت الفرصة سانحة له ليبادر بهـذا الحـل وحينها سيتصدر السباق دون شك. أما يعقوب فقد قطع فى تلـك الفترة شوطاً كبيراً فى الارتقاء الكنسى قارب فيه الحصول على مكانة لا تدانى. فلا شك أن استغراقة فى صمته نأى بـه لفتـرة عن كل ما يضطره لاستنفار طاقته الذهنية للحكم علـى مـدى توافق واقعه داخل الدير مع حلمه الغيبى، فاسـتمرت مناجاتـه الخفية، وكان أن زاد من عطياته للخادم الذى تغير الواقع بالنسبة له آنذاك. فبعد استسلامه لأوامر الأب يؤانس فى البداية لم يكن يتوقع أن يتجاوز يعقوب فى قداسته ذلك الرجل. وبعـد سـماع

حكاياته مع القديس الذى اعتاد زيارة الدير لـــم يشـــك فـــى أن مضيفه كان يعقوب ومما زاد ذلك الاعتقاد رسوخاً لديه إمتنـــاع يعقوب شبه النهائى عن الطعـــام والشـــراب دون رغبـــة فـــى الإفصاح عن ذلك لكنه لم يشك حتى فى إن له موارد أخـــرى، حتى بعد أن أعلن فى الدير عن اختفائه لفتـــرات كانـــت تعلـــل بانفراده بنفسه فى الصحراء يناجى الرب. لكنه فى تلك الفترة لم يكن مستحباً ظهوره بقوة فى مواجهة يـــؤانس الـــذى تزايـــدت سلطته الكنسية فاستقبل فى فترة اختلاء يعقـــوب بنفســـه أكبـــر الشخصيات قداسة ، لكنه لم يستطع أن يدانى بسلطته المتزايدة قداسة يعقوب التى صار الجميع يوقنها. وبـــدلاً مـــن اســـتقبال القداسات العظمى كان أن ترك قلايته إلى خلوة جبلية قريبة، أما زواره والذين لم يتجاوزوا فى معظمهم رعاة ومستجمين كـــان منهم من يرابطون بجواره ساعات قد تمتد إلى الأيام لا ينطـــق خلالها سوى عبارات مقتضبة كـــان الجميـــع يـــؤمن بمنبعهـــا السماوى فتؤخذ على علاتها وحين نطق باسم مريم ضمن بعض أناشيده لم يرْتب المستمعون لحظة فى أنها على الأقل صـــاحبة قداسة وإن كان خوفهم من الاعتقاد فى أنها العـــذراء أو حتـــى المجدلية باعثه استبعاد تطاوله فى القداسة إلى هذا الحد.

أما العجوز والذى لم يعد يلازم يؤانس كثيراً فلم يعد بالنسبة لـــه أداة استعلام عن كل ما يجرى داخل الدير بعد أن كان سبباً فى إثارة الكثير من القلاقل بين الخادمين فى الـــدير باعتقـــاده فـــى ضرورة أن يطغى عليهم جميعاً قانون واقعى. فقد كان يرى أن الاستغراق فى قانون غيبى سماوى لا يفيد إلا من يفهمون روح هذا القانون وكان يظن أنه لو ارتضى الرجل أن تقسم له السماء طعامه وشرابه وصحوه ومنامه كان عليها الالتزام بـــذلك مـــع الجميع وإلا صار عليه أن يتحمل وحده شعوراً بماديتهم وبتمكن ذواتهم منهم حتى ولو رأوا أن هذه الذوات ليســـت ملكـــاً لهـــم. وعندما يتطرق تفكيره إلى يعقوب كان يرى غرقه فى حلم المجد المقدس يفسره أنه لا يعانى من أى أزمات تجاه قوانينه الخاصة ما دام لا يحرك شيئاً ولا يختلط مع أحد وبذلك لن يضـــطر لأن يطالب بشىء أو أن يدافع عن شىء آخر وبذلك يكون اســـتمرار عمله بالقانون المثالى الفوقى مناسباً فى مثل حالته، فما سيمنحه هذا القانون من حقوق ستكون له وحده، وإن عاقبـــه فســـيقبل عقابه برضى . ربما كان مافعله يؤانس معه لم يكن عقاباً شديداً بمعنى ما، فليست ثلاثة أيام بفترة سجن كبيرة يستشـــعر معهـــا المسجون قسوة وآلام السجن، لكنها كانت تفرض عليه البقاء فى

قلاية راهب سابق يستقبل الشمس كل صباح. كان وقوعه فـــى مسار الضوء الصحراوى النقى مثيراً لديه إحساساً بالنفى. فـــلا شك أن يؤانس أراد بذلك تطهيره بالطريقة التى يؤمن بها، لكنه وفى أثناء تقلبه والذى صار عمله الوحيد فـــوق دكـــة خشـــبية متواضعة كان يخشى أن يطول ذلك فلا يستطيع الخـــروج مـــن غمرة الزهد هذه وإن حاول استعمال أسماء أكثـــر موضـــوعية لعقله، مثل فترة نقاهة أو اختلاء مع النفس أو حتى راحة بدنيـــة لكن هذه التسمية الأخيرة لم تكن تريحه، فلم يشـــأ أن يتجاهـــل جسده وقد كان الشىء الوحيد الذى يثبت صلته بالواقع فى حياته داخل الدير، فدأب خلال هذه الأيام على الوقوف خلـــف النافـــذة قبيل صلاة الثالثة والسادسة وأحياناً كان يقلد استغراق يعقـــوب ويحاول أن يضيف لنفسه معنى جديد لما يحدث فى فضاء الدير فلا شك أن تتغير مدلولات الحركات التى يقوم بهـــا الخـــادمون جيمعاً حتى وإن بدت روتينية وساذجة. لكنها تحت منظار علوى ستختلف لتتحول إلى عمل منتظم لا ينتهى إلى شىء مثير فكان عليه أن يتوقف عن الاعتقاد فى ضرورة حدوث شئ مؤثر بـــل أن يتناسى تماماً ما يجرى.

ففى ليلته الثانية أدرك أن رتابة هذه الحياة ضرورة حتى يتوقف الإنسان عن الإحساس بها فيتوجه تلقائياً إلى داخله حيث يجد المعانى فى صورتها المجردة خالية من أى ماهية قد تضفيها الأحداث على القيم الأساسية التى أسس عليها هذا المعبد. فإعداد طعام الرهبان كإعداد طعام رئيس الشرطة كطعام البسطاء المتحلقين حول ناجى أو يعقوب . ما دام ليس أكثر من طريقة تستأنف بها الحياة للخروج بفعل مختلف يضيف شكلاً آخر للحياة. أما هنا فهذا الفعل على سذاجته كان يمثل لهم الكثير فما بين عمليات طحن الحبوب وخبز الدقيق وإعداد الوجبات المعتادة كان على كل من يعمل هنا أن يلخص كل دوافعه لتؤول إلى شيء واحد هو الصمت، فكان السجين يستشعر تسابق الجميع للوصول لهذا الصمت كغاية نهائية يجتمع فيها السعى مع الوصول. هو الشيء الوحيد الذى يمكن اعتباره حقيقة هنا، حتى لو كان ذلك أمام مفهوم العدالة الذى يعتقد فيه والتى أخذت صوراً أكثر تعقيداً بحيث لم يكن ثمة محكمة لتنبئ بخفايا حادثة سرقة مثلاً كالذى فعل، حتى ،وإن كان قد فعله لغرض العدالة ذاتها. فكثيراً ما تصور أن فى إمكانه أن يعيد توزيع الأدوار وفق قانونه الواقعى والذى تصور الجميع يشعرون به، فكان أن

حمل خطيئة لا شك أنه فعلها لكنه لم يكن يود أن يوصف خطؤه بطريقة يستحيل معها تحديده على وجه الدقة، ومن ثم معاقبتـــه بنفس الدقة، إذ يتساوى حينها أن تسرق أو تقتل أو تزنى أو تأتى بخطايا قديمة وعظيمة لتلقى بها بين يدى الرب لتغفر كغيرهـــا وتنطلق فى شأنك الغيبى دون انتباه لما يعتبره الآخرون هروبـــاً بجريمة بعيداً عن عيون المجتمع. لذا لم يكن غريباً أن يشغله فى الليلة الثالثة العديد من الخواطر حول ناجى الذى علم عنه الكثير من يعقوب ومن سائق عربة الإمدادت. أما عادل قاسم والذى لم يكن يمثل له أكثر من تجسيد واقعى للقانون بطريقة يثق فى أنها بصرف النظر عن عدالتها أو جورها ستسرى علـــى الجميـــع وستثبت صدق تصوره فى هذا الشأن وبذلك يصبح كل ما بنـــى من قداسة أو مكانة غيبية أو تفرد بالأمر محض شىء شخصى لا قدرة له على الامتداد خارج تلـــك الـــذوات المتحليـــة بهـــذه الصفات .

— ٢٩ —

بعد دعايته التى قامت بها المرأة الكسيحة لم يكن ناجى يتصور أن يخلى له مكان فى أكثر الجلسات سرية لكأنها بمجرد تفكيرها فى تغيير تفاصيل ذلك المجتمع المبعثر حولها بوضع تفاصـــيل

جديدة كانت تعيد صياغة المعايير التقليدية للحقائق فـــى رؤوس هؤلاء فلم يكن التعامل مع ما تنشره يجرى كما هو الحال مع أى شائعات جزافية قد تطلق، يؤثر فى ذلك تردد هؤلاء الذين لم يكن يعنيهم أمر البحث عن اليقين بغية اعتناقه والعمل به..

فقد فزعوا إليها ذات ليلة وقد أثار انغماس أقدامهم فى أو حـــال القىء والدم التى أثارتها حولها تقززاً عاماً وهم يجاهدون الغثيان أمام الكيان المتراكم بلا أى دليل على حياة أو موت، حيث تدخل أحدهم وأخبرهم عن نفاد عمرها وكان أن فوجئوا بناجى فـــوق رؤوسهم. ومهما فعل الرجل فى تلك الليلة لإقناعهم بأنهـــا لـــم تفارق الحياة ما كان ذلك بمزحزحهم عن اعتقادهم فيما أتى بـــه من معجزة، تزايد يقينهم بها وهى تقص حكايـــات عـــن أمهـــا العجوز والتى قضت منذ زمن، تمر ما بين حظيرتها ومخميات العنكبوت تستفسر عن الزحام حولها والإمام يحـــدثها باســـمها. وحين لم يتطرق لهم الشك فيما يفعل كان هو يعلم أنه لن ينتشلها من غيبوبتها بما يتلوه عليها. ذلك الغياب الذى لم يكن لديـــه أى قدرة على استيعاب تفاصيله، فلـــم يكـــن يملـــك إزاء تجمـــدها وبرودتها إذ ذاك أكثر من تلك التلاوات والتعاطف الظاهر بينما لم يكن أحد غيره يعلم أنه لايريد بها أكثر مـــن تمنـــى مـــوت

هادئ ، لكنها عادت بعد أن غاب الجميع فى غفلة ضرورية لمن قضى ساعات على قدم واحدة تفاديًا للأحوال المحلقـة بالمكـان وسط البرودة التى حاصرت المتطوعين جميعًا مـن الشـرفات العشوائية للسقف الفوضوى .

استيقظت أول امرأة على صوت الكسيحة تودع أمهـا العجـوز التى أوصتها على مريم وربما كان ذلك هو ما أطال اسـتغراق ناجى والذى لم يدرك الحدث كلية إلا بعـد أن علـت أصـوات الجمع المشتت الوعى بفعل الأرق فترددت فى المكان عبـارات المباركة والثقة فى النجاة.

صار تمسك المرأة الكسيحة بالحياة دافعًا تلقائيًا لايحظى حتـى بالوقت للتفكير فيه كذى قبل فى حياة الأم العجوز والتى طالـت شيخوختها حتى لم تعد تذكر على غير تلـك الهيئـة محترقـة الشعر، بالية الوجه، ببقايا عيون عميقة فى الماضى. أما الانحناء الجسدى بأصله المادى والذى لم يكن يرى منه أكثر من بـروز عظمى مبطن بأسمال زهرية فكان أكثر ألفة للناظرين ولابنتهـا على وجه التحديد، والتى لم تظن يومًا أنها كانت على غير تلك الهيئة فتزداد تمكساً بالحياة فى صورتها الثابتة.

تشبثت المرأة بقدرتها الموروثة على إدراك سر قوتهـــا. أديـــم الأرض أصل الثروات لاغنى عنه. فى خطوتها النصفية تكون حلقات تتقارب فيها المشاهد . أزمان متباعدة . آثار حياة بهدف وبدون ، يجمعها الرأس المتعالى. فتبدو الأم العجوز بساق مثنية وأخرى قائمة، راصدة مترقبة، متوارية فى وضوح تنتظر حدثًا ما، ويجلجل باب حديدى وتسمعها الكسيحة تدعو مقتصدة بينمـــا يستدير جسد ضخم متعرق العنق مهتزه ويغادر وتعـــود حاملـــة صندوقا خشبياً.

ـــ هو لنا. لايبدو جديدًا، لكنه يعمل. نشغله!

ـــ نعم. لكنا لن نقضى اليوم كله أمام التليفزيون. لن يعرف أحد ذلك. ليس الجميع يملك تليفزيوناً عندها يســـتكثرون علينـــا مـــا يأتينا، وليس بالكثير. ليسوا جميعهم إلا يسعون لذلك.

إيزيس فى شيخوختها تتخفى وتدبر لتحقيق هدفها. وماذا بعد أن تحقق. مات مرة أخرى ولم تمت هى. ماذا كانت تنتظـــر ؟! أن يرفعوها على منبر. ليست كناجى. هو الآخر يفكر فـــى أمنيـــة ولايبد بمدركها حتى إن واصل صلاته ووعظه. ربما هو وحده من يظن نفسه من أهل الفردوس. أنا أدرى بهدفـــه. لـــو كـــان الفردوس يخطط له لكان النقيب أولنا فى ذلك. ولو كان يغنـــى

عن الهدف من الحياة لكان يلزمه من القناعة ما يملكه يعقوب والنقيب لأهدافهم جميعًا.

ثم تلوذ الكسيحة بقدرتها على مواصلة الحياة واثقة من الاستمرار الرتيب. إذ ماذا يعنى التغيير إذا كان الهدف هو استمرار الوضع كما هو. هناك دائمًا فى طيات ذلك التكرار ما يقنع بضرورة الإيمان بمواصلته. فكان الجاويش البدين ــ رسول الباشا ــ كلما زارها بمعونة تزداد إيمانًا بأهمية دورها والذى لايمكن التخلى عنه لآخرين ممن لايملكون نقاط قوتها فتختل تلك الدائرة ويصبح كل ما كان يتجاوز عنه باعتباره ثمنًا لسلطتها محض اختلال قيمى لاسيما ما كان بين النقيب ومريم.

ومن ثم يفسح الطريق لسيطرة مشاعر غيبية عن ضرورة طرح كل ذلك وهو ما يؤكد لديها ضرورة التحمس الدينى. فيتبدى لها أن الاستمرار فى أداء الدور بهذه الطريقة ربما يحسن من وضع الإحساس بالحياة ومتانة التواجد فيها قاطعًا الطريق على ما تشعر به من إغراء الرضوخ أمام مواعظ ناجى الدينية، إذ ثبت لديه أنها لم تتأثر بأكثر من زيادة محصلتها المنطقية فى محجة أصحاب المال المتبرعين فى تخاذلهم عن واجبهم نحوها ونحو الآخرين مثلها والذين صاروا يقصدونها كزعيم روحى يمنطق

دوافع العوز لديهم. بينما كانت تقضى لياليها مـــع الأم العجـــوز غير واعية لما يفعله رأسها من تنفيذ وإعادة ترتيب لذلك الكيان، طارحة فيه كل ما تحار فى الوصول إلى حل أو موقــف فيـــه، غير مستغربة انقضاء الزمن فى خفوت أبدى مادام لايعلو عـــن بريق السلطة الكائنة لدى الأحياء . ابتهال للاستمرار هو مايبقى. ديمومة العجز والقوة. التضاؤل المخزى أمام الضمير.

وفى غيبوبتها حين تخابث ناجى وسألها عن طفل مريم استمرت فى أداء دورها. من يدرى لمن هو ؟ .. !ابن مريم ملك للجميع، وتضحك فى وضعها النصف منتصب.

ــ لم يبك. لربما لم يكن بحاجة للبكاء. بكى من سبقوه كثيرًا. لم يستقبله أحد.

ــ والمرأة التى قدمتيها تجذب رأسه وتستنطق صدره.

ــ ماذا ؟ لقد سقط منها. هل تعرف لقد جمع كل أوساخ الأديم. ضحية فى المهد يدنسه الوحل وحين يشب يقتله البغض .

أحس الإمام باقتراب الماضى وتراقصت دمعتان فى تجـــاويف محجرة لكنه لم يهتز الجفون. ربما هو من بقى من كل ذلك.

ــ ماذا فعلت أم اللص ؟ تساءل وجهه المحتقن.

ـ تقصد اللبانة؟ كانت هنا، دائمًا تأتى هنا. ليست هنا آنية فارغة للبن، كلها ملأى، باركها.

ـ قال ذو الرأس الساقط إنهم يفكرون فى إعـادة النظـر فـى أوراقك، ورغوا كثيرًا. حراس معبد فى حكم كسـرى يـدعون النبل. نشوة ذلك التباهى. لن توحى فضياتك بأكثر من النشـوة أيها النقيب.

مجنون بعرشك ولن تبقى .. ألم يقلصوا رتب سلفك. ربما تنتهى لنفس المصير.

تمخطت الكسيحة مضيفة لثقل الرطوبة ازدراء معنويًا.

ـ وماذا يضيره إن حصلت أموال الضرائب أم لا. الآن رقيـب هو، يحصى الأرزاق. لن تفلت من تقليص رتبك، ما من وسيلة لتفادى ذلك.

ترنحت المرأة قربه، يرتج صدرها المتدلى. سيعود. لن يكشـف أسرارى، ليس من القوة لذلك. أوراقك ؟. الضـرائب ؟. ابـن الكلب يظن أنه حارس الناصر. ليس بيت المال هو ما يعولـك. سنرى، لن يفيد الدعاء مع أمثاله.

زبد فم الإمام كغريق وغرغر ماء أفواجًا بينما الأرض أمامـه، ولم يكن تصوره لما يمكن أن يفعله النقيب أكثر من تصور رجل

فقد ما يربطه بآخرين يضمنون استمرار سيطرة كيانه في محيطهم، وصار من المنطقى أن يحاول الرجل استعادة كل ما فقده عندما تورطت ربيبة الكسيحة فى حملها المجيد، وهو يتصور كيف أن ذلك سيورطه فى الإحساس بالخضوع والذى لو لم يكن لهذا الحدث فربما لما أثاره هذا الحدث داخل تلك الذات المتعالية. فليس يضعف مثل تلك النفس غير الإحساس بالفشل فى الحذر. والمشاركة فى آثام تخضع للتقدير من قبل هؤلاء الذين لن يترددوا فى مضاعفة كل ذلك بالنسبة له فليس بمحتمل من مثله فعل إثم. وأكثر من ذلك سيضيفون أوصافًا لاتعنى غير الجريمة واللاإنسانية، وبالأخص لو كان بين هؤلاء الناس الكسيحة والتى لن تمكن التضحية أو المجازفة بتقليص دخلها من أموال المتبرعين. وهذا كل ما أمكنه عمله.

عطست المرأة شاخصة نحوه فى انتظار التشميت. لم يفعل، وهى تتجاهل مرآه عامدة.

ـــ هل أخبرك الجاويش ؟ لم يأت منذ زمن. وواصلت تجاهلها : وقد وجد من يطعمه.

ـــ كان وقت الصلاة وهو مقرفص، لم أعرف أنه يصلى إلا عندما مررت أمامه، كان وجهه نائمًا بينما تنثنى أصابعه ويتجشأ

دسمًا، لعله فعلا وجد من يطعمه. متبرع أو حتـــى شـــحاذ. أى منهم سيفعل اتقاء له. سألته:

ـــ هل يعلم الباشا شيئاً عن يعقوب. أو ليست له أوراق ؟.

ـــ ضرائب. دل الصوت المتحشرج بالدسم عليها. لم ينتفخ وجهه من قليل. مثل شرطة الحجاج لايعلم مـــن القـــانون إلا مـــايبرز سطوته. أطرق ثم عاد يقول:

ـــ إذا كان دوره فلن يحتاج النقيب لأوراق. إنه الآن دورك!!

شد ناجى لفاعه وعاد يواجه الكسيحة، مسلمًا صـــمته للفضـــاء الصغير المتقيح متجاهلاً الارتياب فى قرب سقوط سقيفة الأعواد الجافة. عندئذ سيتعجن الروث والوحل.

من هنا تسود، سقطت رأسها مثل الموتى ولم تمت. خشيها عادل فوق عرشه. ربما إبقاء على من ينسب له بعض الخير، فـــدوماً رأى هؤلاء المحكومون أنه إذا ما أتيحت قدرة البطش أو حتـــى مجرد الأمر أو قدرة التنفيذ لشخص ما فسيكون إتيانه لأى شىء قريب الشبه بالخير محض فضل منه، ما دام إمكانه بدون ذلـــك أن يحقق كل ما يطمح فيه من سيادة ويرسم ما له من أهداف، ما دام هناك دور ما منوط به. هى ديمومة أداء الدور. تشـــمل

الخير والشر واليأس وما بينها خلل فى التأويل .. ألم يقل ناجى هو القدر ! مسيرون نحن.

بالأخص ناجى. حين يخطب فيهم :

ـــ هؤلاء يملى لهم ولن يهملهم. عندئذ سيذكر الجاويش كيف أن سيده والذى لم يقصر يوماً مع أى ممن يعجز عن الاستمرار فى الحياة، وهو النقيب كما يعرف خادمه البدين يستغل نفس القدرة الآمرة، وهو يساوم المتبرعين. وبرغم قناعته فى أوقات قليلـــة بأنهم ربما قصدوا بذلك خيرًا حقيقياً ربما يحرم هو منــــه، فــــإن عادل فى أوقات أخرى يستسهل تمرير قناعته بتلك الصفات التى يجربها الجميع .. فلا خير فى أن يقصدوا بها التودد إليه حـــين سيعلن للمنتفعين عن مصدر تلك الأموال مع علمهم بأنه ســـيقدم نفسه دائماً باعتباره مركز هذا النظام الدائم، والذى يسمح للجميع بالاستمرار فى الانتفاع ماداموا جميعهم يدركون بذكاء تلقـــائى مصادر قوتهم والتى ستسد عجز غيرهم، الذى إلم يسد لصــــار تهديداً مزعجًا. وذلك كله إنما يعود إلى تلك الصور المعلنة للقيم، والتى يتكون إطارها حسب من يضـــعون تفاصـــيلها، وهكـــذا يتشارك الجميع فى كونهم على نحو من الفضيلة، وحتـــى لـــو

اتخذت هذه الفضيلة شكل الإجبار فهى لاشك واقعة، ولايـــنقص من ذلك أنها رغبة فى إخفاء نتوآت عجز إنسانية.

ـ ٣٠ ـ

عاد ناجي يختنق فى نومه حتى لايكاد يصدق أنه مازال يحيـــا. ينزع المخالب الناشبة فى العنق المحتقن وقد انتفخت مقلتاه. لـــم ينته النتن بعد ومن عجب كيف لم تخفت رائحة الـــتعفن تـــرى لأيهم ينتسب؟!!

خلف نافذة تطالع القباب القديمة كانت قدمه المتفككة تطرقع قبو صندوق خشبى مثقب بعشوائية. نفس السوس الصيفى، إمـــدامت الأخشاب واحدة. يتقن السوس دوره بعد وقت سيصــــير رفاتـــاً غير معلوم الأصل، المهم ألا يـــتعفن. أمـــا هـــذه .. ؟ أســـمال ضئيلة .. نصف جلباب أعد لطفل يتطهر، معه عمامته، كانـــت تفيض حوله، والجلباب القصير يطير فوق حفنات الرمال، غير مدرك، ربما هى المرة الأولى التى أمسكت به مريم، وهو لها .. هو لابنها ؟

عاد يعثر قدمه عامدًا فى الصندوق فيقلبه ويشخص بعينيه صوب القباب ويتغنى:

اختلطت الغزول ومضى من لم يكن وبقى من لايزول

الآن قديمة هى. من غير الممكن رؤيتها، الأفضل أن تحـــرق. والطفل، ابنها .. الآن ليست امرأتك، طلقت، ربما لم يحدث هذا الزواج أصلاً. لم يكن الفرق أبداً ذلك العقد.

المأذون المعتوه كان مستغرباً، وكان يعلم أنه حتى وإن كان قائماً بالشرع فلا يفضلنى فى ذلك .. حينها قال لها:

ــ تعلنى رغبتك فى ذلك، رددى ورائـــى. مولانـــا يعلـــم كـــل شىء .. فليعلم هؤلاء الشهود أيضًا، ويعقوب!! لم يكن وحده من لم يسمع. وهل شك أحد أننى رددت قســم الــزواج. لــم تكــن الكسيحة حتى تعلم، ولن ترغب فى ذلك. كانت تردد:

كلمة قالوها	بقوا أحبـــاب
كلمة قالوها	بقوا أغــراب
وبين الاتنين	ما شفنا كتاب

لكنها احتضنت الطفل بعدما لطمه غثاؤها المتوحل. كيف كانت جبهته الصغيرة، ومازال وجهه بلا تفاصيل. ربما تليق الأسمال القديمة به .. ومن يحكم له العمامة ؟ لكنه لن يلبس عمامة. أمـــا الكيان النتن الصغير. لم تكن له أيضًا تفاصيل. ماذا كان يكسوه ؟ لا شىء. لو كان من السهل رؤيته لما كان هذا التشنج والشلل

الذى يحط بصدرى. لكن ماذا كان يرتدى لاشىء. فـــى مرتـــه الأخيرة كان مفضض الكتفين، رغم رأسه الصـــغيرة وجســـده الضئيل ليسمح الوقت بأكثر من هذا .. كان ذلك عنـــدما نشـــر مخالبه أمامى وهو يهم بثقب عنقى. يا لبشاعة مرآه.

كان ناجى من الفطنة بحيث يدرك أن كل تلك التفاصيل ليســـت بالجديدة، ومما أكد ذلك لديه إمكانية حدوث ذلك فـــى مواقـــف مختلفة لم يكن يعيرها الاهتمام الكافى وقتها. معذب يحل ذنبه. لم يفت الشيطان أن يدلل على قدرة التسيير لديه، ولاعزاء للإيمان لو قدم الشيطان دليل قدرته، ولست إلا من يصمد أحياناً ويفشـــل أحياناً. ليست كل الأفعال يمكن أن تكون فضيلة.

استمر كابوسه يحيا واستمر مريدوه يتطلعون إليه، يذكرونه عند مرورهم على القباب الشاخصة فى مطلع البلدة المتضرعة فـــى ارتياب، بظاهرها الصامت .. مقيتة فى انتظارهـــا، ولاشـــىء يحدث أكثر مما يحدث دائمًا. أما أولئك الذين شغفوا بالبحث عن مركز أكثر قوة لنفوسهم الحالمة، متصـــدرون التقـــدم البطـــىء لجموع صارت تتفاوت فى انجذابها بـــين مـــن رأوا ضـــرورة الاستمرار فى التبعية لناجى ومن هم معه مع ما يعرضهم فـــى ذلك لنقمة النقيب، والذى أخذ يتابع كل تحركات الرجل، شغوف

بتصيد زلاته، وأولئك الذين غرقوا فى غيبوبة ولاء غير محدود بدافع من قناعتهم بأهمية الاستناد إلى سلطة حقيقية قادرة على تغيير ملامح قيمهم التقليدية بما ينتهى بهم إلى الاطمئنان لحوزتهم لتلك القيم حتى ولو لم تكن حقيقية، فصار تقربهم للنقيب بالمال والتآمر على آخرين وسيلة للاستمار فى تفادى أى صدام أو نقمة ذات مرجعية قانونية وهو عكس ما يلاقيه غيرهم .

وطأ ناجى نفسه فى مركز المرتابين .. لأى قانون يكون الولاء ؟ ويقول آخر:

ــ للقانون أم للسلطة!!

فيرتجف ناجى بالحماس ويتغنى :

ومن للحكم غير الطائعين لأمر الله سلطانًا وقانوناً

ــ أتى المحصل وكان يعد علينا كل شىء يقول إنه إذا لم يحصل المال فربما يتدخل النقيب وهو من بإمكانه أن يقدم تفاصيل وبيانات غير حقيقية. قال أحد المرتابين.

ــ من قال يغير. ربما بإمكانه، لكنه لن يملك أن يدافع عن نفسه أمام الجميع حتى من خصيانه إذا ما صار أمامهم نموذجًا حيًا لكل ما يفعله الشيطان، وليس ذلك بالشىء الصعب. مازالوا

يذكرون ما قالته اللبانة. المرأة بإمكانها تجريده من سلطانه المزعوم. لكن مازال هناك فارق بين ما يظنونه قادرًا على فعله وما يستطيعه فعلاً .. إن تنازل هؤلاء عما لهم إنما هو ما يزيد من مساحة سلطته وهم يزدادون اعتقادًا فى عجزهم عن مضاهاة ذلك فيزدادون ضعفًا .. تبًا لضعفهم لكنهم حتى لو رفضوا الخضوع له فليس من السهل إقناعهم بالخضوع لنا. قال فمه المستدق.

كان يعلم أنه لن يمكنه بسهولة استنهاض حماسهم للإيمان بحقيقة فضائله والتى وإن بدت متسقة مع خطبه ومواعظة فمازالت بعيدة عن قناعاته المطلقة ولكن حضورها باستمرار فى تفاصيل كلامه يزيد تثبته هو من حقيقة وجودها، وبالأخص إذا استطاعت تلك الوصفات الفكرية أن تؤثر فى ساميعها بصورة مادية، بحيث تدفعهم لاتخاذ مواقف ملموسة كان منها طرح علاقة النقيب بمريم .. وأكثر من ذلك.. التفكير فيها. حقيقة الولاء. الضعف. ليس أقل من الخضوع. وبسم الولاية العليا ضمن سلاطين طغاة ولاء شعوبهم ولم يزل متطلعون آخرون للسلطان يتلفعون بالولاية يقتسمون شعبًا مازال بلا سلطة حقيقية. أسهل الولاء هو الخضوع .

صار اجتماع الناجيين حدثًا متكرراً فى الظاهر قليّلا وفى الخفاء كثيراً. وربط الإمام بجوار تجارته وقد ضم إليه كل من اقتنـــع بخطبه وأفكاره التى ربما كانت فى بدايتها كمن يقدم وسائل بديلة لنفس الشيء مقصد الجميع. يزدرى اســتحواز النقيــب علـــى مجموع التبرعات والأموال وطريقته فى مســاندة المحصــلين الحكوميين، بالإضافة إلى تحكمه فى حركة التجارة وبـــالأخص الأكثر أهمية للبناء منذ منع صفقته واحتجز تاجراً كـــان يعلـــم صلته بيعقوب

ولايزال بناؤه محض أحجار. ربما لم يعد يعلم عنـــه شـــيئًا .. ترهبن، ولم يعلم عن صفقته شيئاً، ربما صار أكثـــر قـــوة فـــى البرية ،من الآن ينتهى كل ذلك ،كان يجب أن ينتهى.

ـــ هكذا لن يعلق أحد ثانية. نطق صوت ابن اللبانة النسوى.

ـــ كيف أفلت. لو لم يكن ذلك ممكناً. والآخرون ؟ !أتصدى لـــه ناجى.

ـــ جاورنى هناك رجل يعرفك، كان البغل يجلده وهـــو يحـــاول الكلام. انزلق الكلام من فمه:

ـــ لم أكن أعرف .. لكنى لم أفعل شيئاً يستحق فاكهة حامضـــة فى الرمال ليست سرقة.

كان ذلك حين انحنى البدين ليلتقط لفافة قطن سقطت من أذنـــه، وخلال ذلك كان يرغى ويتجشأ ثم عاد يجلده .. هل كان الرجل منكم ؟!

ــ خرجت ذات ليلة أنفذ شيئاً خطط له النقيب، كان قد وعــدنى بمكافأة. هزأ من نفسه وأكمل:
بالطبع لم أحصل عليها، فلم يكن الباشا بالرجل الذى يكافئ مــن يتلصص على استراحته. لم أكن أنتظر هذه المكافــأة علــى أى حال لكنى حصلت على ما هو أهم، وهو ما علمته أمـــى، ولــم يجرؤ البغل على تعليقى بعدها، لكن رجلك كان يعلق كل ليلـــة. كان يطلب منه شيئاً ليقوله لكنه لايتيح له الفرصة لذلك، وكنــت أنام فلا أتابع ما يجرى .. على أى حال فقد رأيته محمولاً ذات ليلة محمر الوجة ولم يكن ذلك غريباً بالنسبة لى لكنه كان كذلك بالنسبة له وكان ذلك فى صالح الجميع بالطبع، فربمـــا خشـــى عادل أهل الرجل حيث علم أنهم ساخطون لذلك.
وهكذا خرجنا، ولابد أن الجاويش يشعر الآن بالملل. ربما خــلا جيبه أيضًا.

تمخض وجه ناجى عن غضب هادئ ينم عن أصل قديم. خصى هو الآخر، لم تسعفه نزوته أمام جبن حقيقى. هل كان بـيلاطس يعلم أن ما يقوله سيعتبره الخصيان قانونـاً فيعلقـوا صـلبانهم ويتأهبوا للجلد بينما يفكر هو أنه إنما كان يقصد أمراً آخر. وابن اللبانة، شغوف هو بالتآمر، أتقنه قبل أن يتآمر لأجل سيده، أمـه تهادن جلاديه، عاهرة، وابنها لص، تعلم أنها لن تخرج من ذلك إلا بموتها، وحتى لو سقط بيلاطس فلن يتخلى عنها ذنبهـا بـل ربما تتضاءل الميزة الوحيدة له بزوال أهميته.

واللص، يقضى معظم أيامه معلقاً والباقى فى خدمة سيده. فكـر حين اقشعر البدين أمام الجسد المحمول أنه لـو كـان آخـرون يفعلون الشيء نفسه لكان أولى به تبعيتهم، واضعاً فى اعتباره ما يستدعيه ذلك من ثمن .. وها هو قد قدم أو سيقدمه آخرون غيره لكنه لم يتخل بسهولة عن انتمائه القديم والذى صار مقنعاً ومفيداً له وبالأخص بعد ما ألف المكوث فى مملكة الجاويش، ما دام لن يعلق ثانية. مدنس يأبى التعفف .. خصى هو الآخر، لكنه أكثـر نجاحاً فى ذلك إذ ما فائدة الرجولة إذا فقدنا أمامها الحياة .

زرقة سماء ورقة نسيم يختلط بما يفوح من عبق بخور ســطع أعلى الربى المتجاورة. هنا مر الراهب حين خلف وراءه مبنــاه لم يتم، وهنا حيث وقف الأب يقسم الفضاء بنظره، صــار الآن كل شيء قديماً، وحتى المبنى نصف المكتمل .. لم يكمله نظره، كان صبية يتغنون:

حلوة التلة صغيرة   حلوة زى القنبرة

هناك ولى فى المعية، يرقب، يتصنع الاختباء. وهناك العجــوز، أم الكسيحة .. الآن كثير فوقها التراب ولم يرتفع قبرها كرامــة إنما بأمر الكسيحة، أوصت مريم أن تهيل قدر ما تستطيع.

نشيج وابتهال حقير. محفل جنائزى لأمنا الأرض. لكنها دومًــا العروس. تتزين بهم جميعاً فى الحياة والموت. ترمم لايسكن إلا جوف الأرض وآخر يسكن النفوس بمثل تقلب الأرض وهــى تتهيأ لما ومن يطأها حتى إذا ما خلت جعبة مزاياه فارت فانقلبت أحشاؤها ولفظت كل ما سكنها واستعادت سكونها من جديد. هذه التلال تعلم أكثر مما نعلم وإلا ما ارتفعت هكذا.

قاوم ناجى انهيار ساقيه فى موجات الرمال السائلة وهو يلــوح بكفيه فى الهواء كمن يتقى وحشاً .. الخبيث، سيعرض مخالبــه،

اللعنة على الخوف .. حتى هذا يمتلك. ما أقسى تشظى النفـوس بين إيمانها وطموحها .. الأول يقين يمنع الخوف ويعزى عـن اليأس. والآخر هو الحياة نفسها، حتمية الانتماء للممكـن ومـا يستدعيه من تسابق بحثاً عن أفضل ما فى هذا الممكـن. ومـا بينهما ليس سهلاً .. إنه نهوض الولى من مرقده واستواؤه على التلال. ليت يعقوب بقى، ربما لم يكن معبده كل حلمـه، كـان أفضل لو استبقى من حلمه شيئاً لهذه الروابى والتلال. حينئذ لم تكن مريم لتفتدى نفسها بخضوعها وهى محتمية بالكيان الكسيح لخالتها، ما أغبانى حين أضعف أمامها وتذكرنى بالدعاء .. عاقر وتملك وحدها سر استمرار الحياة، وبيلاطس المتيم بـالاعتلاء أفرغ زهوه كله بمباركتها. ميراث محررين. دعاة العدالة، إذا ما كانت الكلمة تعنى محض عادات وكلها تحت مسـتوى الحيـاد، ربما ينصف لو عمم بطشه. لكنها أنصفت نفسها. كانت تعلم أن قوته لن تكتمل بغير ذلك فأتاحت له نفسها. بارعة، ألـم تربهـا الكسيحة، سليلة المتاجرين بالعجز ردد:

بنت الراعى لمحت ديب   زعقت فيه أمشى بعيد

قـاللها غنماتك هرحمها   بس هـاخد منـك إيد

ولم يهون شيء عندها خيبة السقوط وهى تعلم أنها المرة الأولى ولكنهم قالوا لها غير ذلك .. ربما كانت اللبانة من قال : سقط الإمام كعادته. العاهرة، كانت تعلم حينئذ أنى لست مخلصها. ربما الشماس أيضاً لم يعد يخشى على الخنازير، حينها كان يثأثئ كمن يبشر بعيد مفاجئ .

دماء تسيل بلا أجساد، قد يكون ذلك اللون الثابت هو ما يبقيها دماء إنسان لكنها هنا وبعد أن تعددت ألوانها لم يعد من السهل تخيل تلك الأجساد. ابن مريم ملون هو الآخر، ليتها ما حملت غير الدماء. كانت تسر فى صمت :

ــ أشعر به يتحرك .. إنه الألم، حين يخرج سيزول الألم .

وتدلك الخصر المنتفخ. حين علم الباشا علمت اللبانة وقلت زيارات الرسول ذى الرأس الساقط وقد قلل من أوحال البيت. وما زال يعلن أن سيده لن يقصر فى أى حق وأنه إنما يسعى لذلك وحده. مداهن مثل سيده، الرجل كان يعلم أنه سيضطر لسرقة سيده إرضاء للمرأة بين الأوحال بزيادة عطيتها. أقسم والآخر لايشك أنه يكذب ولو لم يفعل لكان ذلك سهواً.

ــ لم يدفع غير فلان، وفلان .

لكنه عدنما يقسم أمام المرأة يزيدهم واحداً فتلقمه حجراً وتزعق فيه:

ـ وابن الكلب بتاع النسوان عليه كثير .. لن أموت قبل أن أفضحه أو آخذ مثل الزانية.

يسقط الرأس الكبير ويعلو شخير برائحة الدسم.

لم يكن التابع البدين بمستغرب ما فعله وهو يهدر ولاءه غير مرتاب فى ضرورة ما يفعل إذ يسرق ما لن يعطيه الرجل ويكون هو مضطراً للإعلان أمام المرأة أنه إنما يحافظ على موقفه من الباشا باعتباره لاغنى عنه، وقد كان على حق، فكان النقيب لايكاد يشعر بسخونة جسده حتى يدعو الجاويش، وكان غالباً ما يفلح فى التصرف فلا يملك سيده إلا أن يقر له بأهميته، أما هو فقد كان يزداد بذلك ثقة فى أهمية دوره باعتباره الضامن الوحيد لعدم خروج النقيب عن وعيه مجنبًا إياه فقدان أعصابه أمام ما يقوم به ناجى وأتباعه من تحد له وهم يرفضون أى مقايضات معه محطمين بذلك أطراف نفوذه الذى بدأ يتهاوى وخاصة بعد ما أذاعته اللبانة عما يجرى فى استراحته، فقد صار ابنها أكثر قرباً من ناجى وفريقه .. هؤلاء والذين كانوا يتخذون من حدث الرجل الذى شوهد محمولاً مبرراً لتشويه شخصه

متخذين فى ذلك من علاقة يعقوب القديمة أيام تأجج حلمه مـــع النقيب مبرراً لمحاصرته كما زادت مريم من ضــعف موقفـــه بإنجابها طفلاً لم تتضح ملامحه بعد.

يقف الجاويش فى كل ذلك موقف المنصف والمنظم والذى يكفى كلا شرور الآخرين وذلك رغم حاجته الكبيرة والملحـــة للنـــوم والتى صارت أكثر إلحاحاً بفعل ما يقوم به من مجهود لايفلـــح فى معظمه، لكنه لاشك مفيد، وبالأخص فى شأن مـــريم فكـــان يخاطبها لاهثاً :

ـــ الباشا غادر استراحته إلى منزل بعيد. هو يعلم أنـــك هنـــا. يخبرها كمن يفشى سراً.

ـــ خالتى تفقد الوعى أكثر مما تستعيده، لـــن أتركهـــا .. ربمـــا تموت قريباً.

ـــ يعلم ذلك أيضاً. يوقف شخيره بصعوبة مشتت النظر بفعـــل ارتيابه فيما يقول والذى صار أرقه الدائم. أنطونيـــوس عجـــوز يتضاءل بفعل الزمن. مغتر هو بما يمكنه فعله عما يعجز عنـــه ولم يزل رأسه يسقط، فقط جسده البدين باق يستقر فوقه الـــرأس الكبير مزداناً بفجوتى عينين أغرقهما الزمن .

عن بعد مداح يتغنى:

درة الرأس العقــل　　　وزينة العين النظــر

والحياة يأمها التعقل　　　وينير ظلماتها النظــر

ــ ٣٢ ــ

قلت زيارات أنطونيوس العجوز وهو بينها يجول يلقـــى نـــاجى فيتمخط ويزمجر وبعدها ينسى كيف كان يطوق رأسه بمسبحته العاجية فتتهدل بعشوائية فوق لفاعه، ويواصل جولاتـــه لوقـــت طويل يقطع فيها مسافات، وما إن ينتهى حتى ينسى أول ما فعل وأول من قابله فيئن وهو يتهاوى فوق مقعد خشبى يصر.

ــ الحلاق .. الحلاق. يردد فى الاستراحة الخاليـــة. إيـــاك أن تنسى الفرشاة، سيسلخ قفاه .. الباشا لم يعد يصبر كثيـــرًا علـــى ذلك. خارت أرجل المقعد ببطء.

ــ لو عاد يبيع امنعه، وأخبرنى لو التقى مريم لاتهتم اليوم بغير ناجى .

زعق بالكلمات الأخيرة أثناء تراكم جسده فوق الأرض الصلبة ولم ينتبه لدماء حلقه إلا بعد أن ابتلعها عنقة الثمين وهو يقـــول ثائراً:

ــ وحل. . طعام مهضوم .. قرف .. تتقيأه الكســـيحة لتتقيـــأ، ستموت وهى تفعل. متى أتت اللبانة آخر مرة .. اليوم ! .. لا ..

ابنها هو الذى أتى. يحاول النهوض فتصطك الآنيـة الفارغـة حوله. اللص سرق بالأمس ..

صار كلامه غمغمة كجمل يرغى. سرق من .. آه .. سرق مرآة الباشا .. لا .. سرق سيارة .. شاطر، سينجو منى إذن. عنـدما يأتى يوم ولايسرق لن ينجو منى. هو يعلم، أمه أيضًا تعلم مـا عليهم، العاهرة لم تأت اليوم .

تهدلت أطرافه كلما قاوم الانجذاب لأسفل وخلا مجال رؤيته إلا من قوائم الغرفة والنافذة النصف مفتوحة، وقـد بـدأت ماديـة إحساسه بما حوله تتضاءل حتى لم يعد يستشعر أكثر من كتلـة ورقية هشة تخشخش داخل قبضته وهو يجاهد لكى لايفلتها. كان كلما حاول تذكر موقعه يفشل فيعـود يرغـى ويشـخر بعمـق ويحاول أن يتمتم:

ودرة الرررى العقل وزيبينة النظر.. والحياة يمممم ... النظر لايستغنى عنى فأنا كل شيء. قالها حين نجح فى النهوض مسنداً كتفين رخوين على الطبقة الجيرية للجدار المتآكـل. أنـا كـل شيء .. من يلمع الصورة .. والبرواز. الباشا يعلم..

زاد احتقانه فجأة وعادت عيناه الغريقتان للجحوظ وأفلتت قبضته آخر الأوراق وفى رغى كالفحيح حمل زفيره المتهادى كلماته.

ـ ملف يعقوب!! لاتقلق لن يعود .. قد يعود. التهبت ساقان متورمتان فى نصفه السفلى وفى تودد لسكينة لم تأت أبداً، تضرع بلا صوت، ولحظة الغياب واحدة، بطعم الملوحة وانفلات الإحساس بالوجود، ولاوجود ولاعدم، ولا عدم يبقى ولاوجود ينعدم، أحدهما فى غياب الآخر وما بينهما انشغال بالمغزى منهما . فى الوجود اقتراب من العدم تتضاءل وطأته بالتواجد خارج الذات، فوق الآخرين حتى لو كانوا فى العدم وحين يعم هذا يتساوى الجميع، كل خارج الذات.

مضى من لم يكن وبقى من لايزول

ـ ٣٣ ـ

سلامة الانتماء للممكن ويقين الاستمرار. الإسهاب فى التلون، مريم، عشوائية الانتماء وغليان الدماء الباردة واختباء شاهد قبر .. مثله شاهد العجوز.

ـ النجاسة بيرضع .. ! تساءل وجه الكسيحة المنتفخ بحمرة مرضية فوق الجسد البدين عن الطفل فى أحضان مريم .. شهرين فقر .. ابن الكلب مات ؟ إكان حمار حمال، وسيده هجر استراحته واللبانة تقول ورقه كله ضاع.

يبالغ الوجه فى الانتفاخ وتثقل الرأس منحدرة للخلف يتبعها تكتل اللحم المتدحرج. لن تموت مهما حاولت، ليست المرة الأولى ولا الأخيرة، لن تموت كل هذه القدرة .. مثلها رمانة ميزان فقط قد يطول ذلك هذه المرة. تمرر مريم طرف كمها فى ثغرة ثــوب عفن مبتل.

ــ لا أذكر آخر مرة تحممت. لايطول ذلك، ينتهى بمــا لايــدع مجالاً لتذكره. تتقن التحاور مع الموت كأنه لن يحدث إلا حــين تريد هى ذلك. يتكرر التحاور، مرة تــدمى وأخــرى تطرقــع عظامها، وتواصل. تصطك الآنية حولها وتعود فتتقئ وتتزلــق القدم الناعمة وتتكور مريم جوارها ترضع الطفل وتغنى:

كانت يمــامة مـــــروحة   وشايله قمحة صغيــرة

شافها صياد من حينـــــا   ببندقيــة معمـــــــرة

ضربها طلقة فى صدرها   وقعت والقمحة فى بقها

تسربلت مريم فى احتجابها إلى جوار الخالة المتكدرة بالصمت، تقعى جامدة إلى البقعة الوحيدة النظيفة، تنتظر ســقوط الســقف الهش ولايحدث، ألم تكن تعلم أن كل شىء هنا ينتظــر لحظــة انهياره وهى تحجل ، وتصفق فى صدرها الكتلتان الضــخمتان برخويتهما . تنجذب مريم للحجل وتغرق فى التصفيق وتنام.

كان ابن اللبانة يعلم ساعات غفوتهما. لص منذ الوهلة الأولـــى، هكذا كانت المرأة تقول عنه، يعلم أنه لابد فاعل ذلك فلا ينتظـــر أن يساعده القدر .. إن من يعرف أنه يفعل ما لا يرغبه الجميع لاينتظر القدر دائماً فليس القدر إلا ما يجمع الجميع على تكوينه، باتفاق وبغير اتفاق. اللص لم يرغب فى معاداة قدر الآخـــرين. لنكن مرة فى خدمتهم. تعفن ابن العاهرة فى سجنه ولم يخـــدم غير جلاديه. ألم يربحوا منك، أليسوا هم من ســـخروك لـــذلك. البدين العجوز يعلقك إذا خلت الجيوب ولولا قليل من حظ هيأته أمك وهى تفعل كل ما فى وسعها لكنت جسداً آخراً محمولاً على لوح خشب من باب السجن. كان ناجى يخاطبه وهو نصف نائم:

ــ ستفعل ما أقول. وفعل، لم يجهده ذلك، فقط عبـــور نصـــف جدار وتفادى أرضية موحلة وحمل طفل صامت على كتفه بعدما أزال عنه لفافة صنعتها مريم. أما الجسد النائم والذى خـــلا الآن من جزء منه فقد تجاوب بتلقائية مع الحرية الجديـــدة وانطلـــق يتقلب على حصير مفروش بأسمال رثة وقد علا بجواره بطـــن مقبب وساق بدت كالمبتورة.

فى صدر مجلس مزهو، جوقة متآلفة فى ظاهرها، مــلأ نــاجى عرشًا فى قدسية سبح حولها الآخرون لايتجاوز صوتهم الحفيف وقد بدوا فى تكدسهم كعقد تشابكت فيه حلقات غير متشابهة لكنها مهما اهتز أو انتفض العقد باقية فى انتمائها بفعل ما يجذبها مما قبلها وما يتشبث بها مما بعدها. من فوق عرشه كان يلمح ناجى الاستراحة الخالية، حصن متآكل تهدل معظمه وآثار بصق كأنما تدمى الأحجار الجريحة.

ـ هل أرضعتة اللبانة وانتهت ؟ ايبدو الآن أكثر قــوة. قريبــاً سينسى أن له أماً.

نقر ناجى على رأس الرضيع الغض فتلوى حول محوره وهــو يحاول تفادى هبة رياح دقيقة بعثها فم الرجل. مشط بكف خشن قليل أهداب نابتة فى رأسه وهو يشد ثوباً ضئيلاً بدا كجلبــاب. أرقد بجواره عود سواك هندياً فواحاً. قريباً تمسك به، وتكــون هنا فى المجلس. إلى ما انتهينا ؟. جوقة السلطان، تحقق آمالــه فى النجاة بالعرض وحده، وفى التشبث بالنجاة يختلط المقــدس بالمدنس. ألم يقم رجل شهد له بالصلاح على سيده ولــم تنهــه بيعته. ماذا لو لم يفعلها الســلطان ويقتــل خصــمه، لصــرتم

تحاجوننى فى كل كلمة، ورغـــم طـــاعتكم تنتظـــرون بشـــوق عروشكم الصغيرة. ككلم يعلم أن النقيب لم يعد يراقـــب شـــيئاً، وكيف سيفعل، إنا أمامه. ومس ناجى بيـــده صـــندوقاً خشـــبياً معطراً.

ــ متى يوزع المال ؟ إقال وجه ابن اللبانة الأبله

ــ لن يوزع مالاً، إن ما قصد به الله فليس لسواه.

زعق الإمام عامداً كمن كان ينتظر ذلك وانتحى بمحدثة جانباً:

ــ لست كغيرك، سأعطيك، لكن انس ذلك الآن. عادل بيه ربما يعود!!

ــ ألست معك. قلت سنهدم استراحته.

تجاوب ناجى مع بلاهته بصمت ذى معنى. ليس قبل أن نستعيد أوراق الضرائب.

ــ لقد أصبح المحصل منا. إنه أول من يلتصق بمنبرك حتى أنه فكر فى تقديم استقالته. الرجل لم يعد علينا.

ــ أجدى له ذلك .

ــ والاستراحة. قالت أمى كان النقيب يأخذ مريم..

كانت صفعة مدمية قد شلت الحلق الأبله حيث دار حول نفســـه والتصق بكرسى العرش. تأمل ناجى الجسد الضئيل الملقى وقد

شمله ارتياب بخصوص ما يملأه من تشقق شمل كـــل عظامـــه وتقلص فى أحشائه أخفى وراءه إحساساً بالعجز ، تواريأ لألـــق قديم، ميراث سلاطين فى اعتلائهم الرؤوس، كبرياء الرشـــيد . استعانوا بكل ما فى النفس من أمـــل حيـــث حضـــور التـــاريخ وانطواء صفحات الإدعاء بسم النبل والصلاح، تاريخ ينتهى فى تلك اللحظة، لم يكن فرسانه فى معظمهم بـــأكثر مـــن أســـلاف عاشوا سؤلا مازال يحيا:

ــ لأى يكون الولاء؟!!

لقانون .. لحلم .. لغيب. وفضيلة الإنسان!!

ــ ٣٥ ــ

ــ يعترفون بأنهم يعرفون الله ولكنهم بالأعمال ينكرونه.

رتل يعقوب مقلباً رأسه المثقل وقد غرق فـــى ســـحائب بخـــور الرؤية وطالت الانحناء الخشبى العلوى فى سقف الـــدير. نفـــخ محتجزاً لهاثه بين صدغيه وواصل الطواف ببطء، عـــن يمينـــه كان باب صغير يصر ويهدأ وقد التصق به رأس عجوز تستقيم عينه مع الشق الطولى المفسح .

ــ ليس أقل من ملك .

بخور يسطع أكثر مما يجب، يتراقص معه الــرأس المحتجــب.
عاد يلصق عينه بالشق ويحدق بلفافة بدت أطرافها خارجة عــن جسد يعقوب الطائف.

علا صوت يعقوب:

ـــ نؤمن بإله واحد .

لا كتاب بيديه، يحفظ عن ظهر قلب، لم أسأله عن قديسيه .
حدق الرأس أكثر . يعمد ؟! ... كان يعقوب قد لمحه فزعق بنبل مقدس:

ـــ أما زلت هنا ؟ لم تطع ثانية .

فاستدار العجوز فى التو حاسباً دهشته وأتاه صــوت الراهــب الرئيس وقد عاوده الهدوء المعتاد منه.

ـــ لن يكتمل تعميد دون مسح، سنة المعمدان بسلطة ورئاســة.
بطل ادعاء المتعالمين. ألم ينحن السيد أمامهم بكل جلاله.
خشخش صفحات قديمة رطبــة، قــانون آخــر، ملــك ادعــى الإيمان .. ليس وحده، لولا الشك ما حفظ الإيمان .. القوانين .. قلب الأوراق ... ما كتبه الأنطاكى .. لو نجح المتآمرون لكتــب غيره. بقايا نضال آخر، هى ما خط كل ذلك، يحفظها التــابعون أويفرطون . إنه شأن الإنسان. يلزمهم نضال آخر.

فرقع العجوز بعيداً فى طريقه بآنية معدنية . مغرر آخر، ودلـــو أسقط عنه كل شىء ولم تكن طاعته من قبل لرئاسة .. كان يعلم أنه لن يرقى ولم تكن التضحية بوسيلة لاعتلاء قلبه وهو يلغو :
ــ قلايتك مشرقة الآن أكثر، لولا هذه الملاءات ما أشـــرقت .. أغسلها بنفسى. كنت أفعل ذلك يومياً فى غيبتــك وكـــان أبونـــا يؤانس يظنك فى الطريق كلما فعلت ذلك. وهأنت الآن تطمـــئن على أن قليل من تضحية ينتزع منى كل هذ ا الإخلاص ولـــيس البيض والدقيق، لكنه هذا الجلباب الذى منحته لى، لم أكن أعلـــم أنى ثمين لهذا الحد . يصر على بعض الضلال، إنما إخلاصـــك لسلطان .. حاشية خلقت لتتبع ولما يجدى تحرير النفوس معهم.
ألم تصر على الشكوى وبعثت التماسك لنقيب.
غص حلقه وقد رغرغت عيناه وعطس. لولا علم الآخـــر لأى سلطة تتبع لصرت خصياً مثل غيرك .. تمـــتم مجففـــاً ســـوائل عينيه. ولم يكن ولاؤك أبداً إلا لســـلطة، فلـــتكن تلـــك ســـلطة لاتضحية، لكن رغماً عنك رئاستى، بل الاثنان لى ولن يجـــدى بحثك عما ظننته قانوناً. لم يخبرك الشيطان قبل التغريـــر بـــك أيهما أعدل.
عاد التابع تصطك فخذاه لثقل حمله مع ثقل دهشته.

الرجل عاد رئيساً للدير وما عاد يهتم بشيء آخر ورغم حكمتـــه ولقاء القديسين يعمد لفافة خاوية ربما يرى ما لا أرى.

كان يعقوب يتابع الطقس المقدس بثبات تنساب من فمه التسابيح والتلاوات وقد بدا وجهه أكثر ارتياحاً ينم عن حوزة شيء مـــا. انتهى وعاد يطلب طعاماً قليلاً ومازال يسبح في سحب بيضاء، ابتهالات صامتة، حكمة المادة، علمها الرب القداسة ولـــم يـــزل الإنسان على فساده.

سأل يعقوب عن سيارة الإمداد لما أخبره الخادم اقتـــراب نفـــاد المؤن وهو يمشط الساحة الخالية إلا من العجوز وحماره الـــذى بدا فى صحة جيدة بعدما خفف عنه العمـــل لضـــعف العجـــوز المتحكم فيه ولقلة أعمال الدير بعد أن قلصها يعقوب نزولاً عن قناعة خفية لما أثار العجوز من ضرورة تنظيم العمل وتوزيعه، شجعه على ذلك ما ارتقى إليه يعقوب مـــن رئاســـة واتصـــاله بسلطات أكبر، أما الرئيس والذى قل تأمله تحت وطأة مسئولياته الجديدة فقد أخذ يبدى اهتماماً أكبر بالأخبار الواردة مع حـــاملى المون.

وعندما عادوا كان يعقوب يقف بباب قلاية يؤانس الخالية وقـــد توترت أصابعه وهو يختبر أبطأ الطرق لدخول الخلـــوة غيـــر

المسكونة الآن بعدما ارتقى يؤانس تاركاً خلفه أقانيم مذهبة وبروايز للعذراء. توسط الخلوة مقعد خشبى قديم كان يناسب الجسد الصغير لصاحبه فأزاحه يعقوب ببطء وأخذ يعيد ترتيب المكان وكان من عادته وضع الأيقونة المقدسة أمامه فى مستوى جلوسه..

ـ تباركت يا من فى السماء، فى مقامك أو فى خلاقتك، لا مجد فوق عرشك.

استوى جهة الشرق وتوسطت الأيقونة مذبحاً رسمه فى الهواء وقد تسارعت خطواته وهو يرعد تحته جصاً رطبًا ويخلى أوانى دقيقة وألواحاً خشبية ويجذب درفتى نافذته المتهالكة بينما يحافظ على خطواته رقيقة يمتصها الجص دون أثر لدبيب بينما تقطع ذلك الصمت قرقرة محرك يئز وأصوات معدنية تثير القشعريرة والصوت المكتوم للسائق الذى يقاوم الانتباه الذى يدفعه إليه ذو الرأس المستطيل بعنف ليقاوم رخامة الضوضاء المنتشرة فى دفء الفضاء الساكن وكله مما يهيء للنوم فيسقط الرأس الكبير فجأة ويعود الصوت المكتوم :

ـ نعم أنجبت .. لقد كان ولداً.. انتفخ الرأس العجوز زهواً . ألم أقل ذلك!! كنت أعلم، نم سلوكها عن ولد.. سقط الرأس الكبير

فحمله الرجل المزهو بتوتر ظاهر بينما يدير رأسه كأنما سيلصق شفاهه بأذن السائق، تصاعدت جلبة فرضت نفسها استمر وقعها فى الآذان حتى بعدما انتهى يعقوب من جــر كرســى ضــخم منحوت بإتقان تبعته رائحة أشياء قديمة انتشرت فى الفضاء فنبه الصوت الرأس الكبير، وأثارت الرائحة أنف الرجــل المتــوتر فهمس لنفسه..

ـ والنقيب ! هل كان يعلم ولم يفعل شيئاً ؟! كــان بإمكانــه أن يمنحه اسمًا، أى اسم!! لو كنت مكانه لسميته عــادل ولكافــأت المرأة. لو علم أنى من أنقذها من الموت هنــا لربمــا كافــأنى أيضاً . لقد أخبرتك بذلك.

ـ لم يعد يكافئ أحداً. أجاب السائق بصــوت متحشــرج. ولــم يفتش، قطعنا الطريق كله دون مضايقة، يسكن الآن بيتاً صغيراً يشرف على ثلاثة صبيان فاشلين، منهم لص صغير قال لى إنه يعدهم ليعلموا كعساكر عنده وقد أخذ المقاسات لإعداد ســترات لهم ووعدهم بترقيات كبيرة إن حصل هو على النسر. وسقط فى نوبة نوم.

عاد صوت الجر ضئيلاً متقطعاً واختفى بعدما ســكن الكرســى الضخم وسط الساحة الصغيرة فى مواجهة الأيقونة التى عــزز

يعقوب موقعها فوق لوح خشبى سميك وعـــاد معـــه صـــولجان مذهب، وقطع الخطوات القليلة إلى الكرسى فى وقت طويل بينما يترنح الصولجان أمام صدره، وفى النهاية استقر فى كرســـيه، عرشاً أبديًا، مقام الحكمة، ثالث عشر الحواريين. رفـــع رأســـه ببطء ليشمل الأيقونـــة، والنافـــذة تعـــرض أمامـــه ارتفاعـــات وانخفاضات أرضية متناسقة وثبت فوقها دوائر رملية محمولـــة على نسائم رقيقة أبدية الانطلاق سكنت أفقه وطفت بـــه فـــوق حلمه. هناك كان نصف جدار يتهدم كلما أنهضه وبدين يحذر من غضب الباشا. عاد للطواف، وعذراء رقيقة كانت تربيها كسيحة خرافية تغنى وتلاطف الرمال والخجل يحرق الوجـــه الصـــغير فتلفحه شمس إلاهية الظهور .. قديسة شمس هذه البلاد، عطرة، مانحة حاضنة يعرفها ناجى الآن بعـــدما ســـئم الظـــل تحـــت أشجاره .. اجتثت كلها ولم يبق إلا شمس تملأ العراء وتحـــادث تلألأ قديما لم يذكر أمامها أحد علوها فتسمرت حيث هى تعلـــو وتهبط فى هدوء لانهائى مثل لانهائية القبور الساكنة فيها .. هى الأخرى انغلقت على من فيها ، هناك العجوز ضـــمنت المـــوت والابنة الكسيحة مازالت تتقلب بين الموت والحياة وقـــد بـــدأت ملامحها فى الاختفاء، تفيق من غيبوبتها تسأل عن الطفل فتجيبها

أمه بالصمت. غابت ملامحه هو الآخر عن عينها فلم تعرفه دعاها ناجي لتراه. كان فخذه دامياً وهو يتقلب صارخاً في نصف جلباب وطوق شبكي هش يغطي رأسه وقد أخذ يصرخ وهي تغيب، يدوي في رأسها صوت النقيب:

ـ من غيري يستحق. بينما أخذت تردد أثناء مرورها بالقباب والشواهد المحتدة:

كانت يمامة مروحة وشايله قمحة صغيرة

فيدفعها ناجي بهدوء ويلقي فوقها لفاعه ويتأمل القباب ويتغنى:

بين طلوع وبين نزول اختلطت الغزول

ومضى من لم يكن وبقى من لايزول

وفوق الاستراحة المهتدمة نهض منبره ، واحد من عشرات كانت في كل مكان. وفوق المبنى القديم ذكر يعقوب بخير واستمر يزيل آثار المكان واللبانة تقرع آنيتها.

إصدارات

نفرو للنشر والتوزيع

الرواية

اسم الكتاب	المؤلف
قاهري	أحمد مجدي
الغواية	حسام الدين محمود
كتاب الشهادة	محمد عامر فاضل
على المنحدر	ترجمة ساله صالح
جن وجنون وجريمة	ضي رمزي
على المنحدر	د/ساله صالح
طفل الفجر (ترجمة ظبية خميس)	جوتاما شويرا
صاحب القلنسوة	حياة الحضري
عبر الليل نحو النهار	محمد الراوي
الفضيحة الإيطالية	محمد بركة
الأميرة ذات الهمة (٥ أجزاء)	عبد الله السيد
باب البحر	عبد الله السيد
العصف	حياة الحضري